

الابتلاء في حياة المؤمن

الدكتور أحمد بن عبدالعزيز الحليبي

قسم الشريعة - كلية الشريعة

والدراسات الإسلامية في الأحساء

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المقدمة

الحمد لله المنفرد بالبقاء والقهر، الذي خلق الموت والحياة ليبلى عباده
أبهم أحسن عملا، والصلاة والسلام على نبي الهدى محمد بن عبد الله الذي بعثه
الله رحمة ورسولا.

وبعد فإن لله تعالى في خلقه سننا ثابتة تجري وفق قضائه وقدره، يتعرض
لها عامة الخلق في حياتهم على تطاول الأزمنة، يمكن التعرف عليها بالتأمل في
الحوادث للوصول إلى أسبابها، وبالنظر في السموات والأرض للوقوف على
أسرار خلقها، وبالسير في الأرض لدراسة أحوال الأمم والمجتمعات وعواقب
أمرها، يستلهم منها العاقل العبرة، ويأخذ منها الدرس لما تتصف به من الثبات
والتكرار والاطراد، قال تعالى: ﴿...سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا
مَقْدُورًا﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿...فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^(٢)
وقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكَذِّبِينَ﴾^(٣).

ومن تلك السنن سنة الابتلاء التي أجراها الله في خلقه على أشكال
متعددة، ومقادير مختلفة ليس الإنعام فيها دليل تكريم، ولا عدمه دليل مهانة، كما
بين الله تعالى، فقال: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ
﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرَمُونَ الْيَتِيمَ﴾^(٤)،
وإنما ليظهر الله بها علمه، وليميز بها بين عباده، وليعلم الصادقين منهم من
الكاذبين، وهي ظاهرة من الظواهر السننية التي يتعرض لها الإنسان في حياته وبعد
مماته، فيقابلها في الآخرة بالتسليم؛ إذ لا حيلة له ولا اختيار، ويختلف موقفه منها
في الحياة الدنيا على قدر الإيمان.

وفي هذا البحث يتم دراسة هذه السنة في حياة المؤمن لسببين :-

١ - أنها ظاهرة متكررة تعرض للمؤمن في حياته، تقتضى التأمل المستقل، والنظر الموضوعي، والدراسة المعتمدة على الكتاب والسنة، بعيدا عن النظرة المادية البحتة التي تغالي في الاعتماد على الأسباب، ولا تجعل للإيمان اعتبارا.

٢ - حاجة المؤمن إلى معرفة حقيقة هذه الظاهرة، وحكمها، وكيفية الوقوف الصحيح منها؛ ليتمكن من التعامل معها بوعي، ويستثمر حكمها لصالحه في الدنيا والآخرة.

ويأتي هذا البحث مظهرا نظرة الإسلام إلى هذه السنة في حياة المؤمن، من خلال الخطة الآتية :-

التمهيد : معنى الابتلاء.

المبحث الأول : سنة الابتلاء.

المبحث الثاني : أنواع الابتلاء.

المبحث الثالث : حكمة الابتلاء.

المبحث الرابع : موقف المؤمن من الابتلاء.

الخاتمة : تناول أبرز نتائج البحث.

ولا يمكن القول بأن هذه الدراسة استوفت الموضوع من كل جوانبه ؛ بل أشارت إلى حاجته إلى دراسة أوسع وأعمق، تعتمد على منهج الاستقراء التاريخي لحياة الأمم والمجتمعات التي هي المجال الواقعي لهذه السنة في استلهاهم العبر.

وأخيرا أسأل الله تعالى أن يلهمني رشدي، ويرزقني رضاه، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هداه إلى يوم الدين.

التمهيد : معنى الابتلاء في اللغة العربية :

ترجع مادة الابتلاء إلى بلي، يقال : بلي الثوب بلى وبلاء أي خَلَقَ، وهو مأخوذ من بَلَوَ، يقال : بَلَوْتُ الثوب أي اختبرته كأني أخلقته من كثرة اختباري له. ومنه في القرآن الكريم قراءة عاصم ^(٥) ﴿هُنَالِكَ تَبْلَوْنَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ ^(٦) أي نختبر كل نفس لنعرف حقيقة ما عملت، وسمّى الله تكليفه إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام بلاءً في قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ﴾ ^(٧) ؛ لأن التكليف اختبارات للعبد، ^(٨) ولهذا قال الله عز وجل : ﴿وَلَتَبْلُوَنَكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّعِيفِينَ ...﴾ ^(٩).

والابتلاء في اللغة يكون في الخير والشر، قال تعالى : ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ ^(١٠)، وفرق بعضهم بين الإبتلاء والإبلاء؛ فجعل الإبتلاء من بَلَوَ بمعنى الامتحان، وجعل الإبلاء من أبلا بمعنى الإنعام، والمعروف أن الإبتلاء يكون في الخير والشر معا من غير فرق بين فعليهما. ^(١١)

المفردات الأخرى الدالة على معنى الابتلاء :

- **المحنة** : يقال : محنت الثوب محنا إذا لبسته حتى تخلقه، وهو بمنزلة بلوته ^(١٢)، فالمحن والامتحان نحو الابتلاء، ومنه قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ ^(١٣)، ومنه قوله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَ كُفْرُ الْمُؤْمِنَاتِ مُهِيجًا فَاتَّخِذْنَ مِنْهُمْ سَبِيلًا﴾ ^(١٤).

- **الفتنة** : يقال فتنت الفضة والذهب إذا أذيا بالنار ليشتمل الرديء من الجيد، ومنه قوله تعالى : ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارٍ يُفْتَنُونَ﴾ ^(١٥) أي يحرقون بالنار،

وجماع معنى الفتنه في كلام العرب الابتلاء والامتحان ^(١٦)، ومنه قوله تعالى : ﴿فَمَاءٌ آمِنٌ لِّمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّتَهُ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُمُ أَنَّ يَفْلِتَهُمْ﴾ ^(١٧) أي يبتليهم، وقوله تعالى : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَاؤُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ ^(١٨) أي على اعتبار ما ينال الإنسان من الاختبار بهم، وقوله تعالى : ﴿الْمَ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ^(١٩) . أي لا يختبرون فيتميز خبيثهم من طيبهم. ^(٢٠)

معنى الابتلاء في الاصطلاح :

يمكن تعريف الابتلاء اصطلاحاً بأنه : افتتان تظهر به أسرار الله في خلقه على وجه الحكمة ^(٢١) . أو أنه (ما يدفع إليه الإنسان - قدرا - من شدة ورخاء)، ^(٢٢) وهما تعريفان من جهة ما يقع لعموم الناس من ابتلاء في الدنيا والآخرة.

والمنافقون الكافرون يتعرضون للابتلاء في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى عنهم في معرض بيان افتتانهم في الدنيا : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَوَازَدَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ^(٢٣) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَوَازَدَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ^(٢٥) ، قال مجاهد : (يفتنون أي يختبرون بالسنة والجوع)، ^(٢٦) ويخلق بهما الكوارث الطبيعية التي تحمل بالكفار في الدنيا، وقال الله تعالى عن الكافرين في معرض افتتانهم في الآخرة.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا عِبَادُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ^(٣٠) ،

قال ابن كثير : (هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت أي في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس، وتعلم ما أسلفت من عملها كل خير وشر). ^(٣١)

أما من جهة ما يقع للمؤمن فإن الابتلاء كما عرفه أبو هلال العسكري :
(استخراج ما عند المبتلى وتعرف حاله في الطاعة والمعصية بتحميله المشقة)^(٢٧) ،
هذا التعريف قصر معنى الابتلاء على حكمته، وعلى معنى المشقة؛ لأنه ورد في
سياق التفريق بين الابتلاء والتكليف، ولعل أوسع منه دلالة أن يعرف الابتلاء : بأنه
ما يحدث للمبتلى عن حكمة يقتضي رضاه بقدر الله تعالى الجاري في حالي الشدة
والرخاء، ويستوجب الصبر عليه.

ويتبين معنى الحكمة إذا علم أن حقيقة الابتلاء تمحيص للنفس يحدث
يقظة للذات، واستنفار للقوى الفطرية والمكتسبة يمكنها من مواجهة الظرف^(٢٨) ،
ويكون الرضا بالابتلاء بعد وقوع القضاء؛ لأنه حينئذ تبين حقيقته، أما قبل القضاء
فإنما هو عزم عليه لا رضا حقيقة، وإنما يتحقق بعد القضاء.^(٢٩)

ويتضح معنى تعلقه بالقدر في أن الابتلاء يقع بعلم الله تعالى ، ويحصل
بمشيئته، ويرضاه لعبده المؤمن، ويحبه له؛ بل يضاعفه على أحب الناس إليه من
أنبيائه وأوليائه المتقين؛ ليرفع به درجاتهم، ويقوي به نفوسهم، ويهيئها لتحمل
أعباء رسالاته والقيام بحقه، قالت عائشة رضي الله عنها : (ما رأيت الوجل على
أحد أشد منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم)^(٣٠) ، أولئكُفَّر بالابتلاء ذنوب
عباده العصاة، ويُطَهَّرُهم من دنس الآثام حتى يخرجوا من الدنيا وليس عليهم
ذنوب^(٣١) ، قال صلى الله عليه وسلم : «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في
الدنيا»^(٣٢) ، أو ليظهر الله به إرادته ومشيئته، فإنه لولا معصية آدم عليه الصلاة
والسلام في أكله من الشجرة التي ابتلي بها لما حدث ما قضاه الله من امتحان خلقه
وتكليفهم، وإرساله رسله، وإنزاله كتبه، وإظهار عدله وفضله وعزته وانتقامه وعفوه
ومغفرته وظهور من يعبد به بين أعدائه في دار الابتلاء والامتحان.^(٣٣)

المبحث الأول : سُنَّةُ الْإِبْتِلَاءِ :

خلق الله تعالى الإنسان من نطفة أمشاج، وفطره في أحسن تقويم، وزوده بوسائل الإدراك من عقل وسمع وبصر، يستطيع بها التلقي والإدراك والاستجابة، ومنحه القدرة على الحكم والاختيار، كل ذلك وفق حكمة مقدرة، وقصد معتبر، لا عبثاً، ولا لعباً؛ وإنما لibtلي هذا المخلوق، قال تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾^(٣٤) قال الطبري : معنى الآية (لقد خلقنا ابن آدم في شدة وعناء ونصب)^(٣٥)، ولينشأ على سُنَّةِ الْإِبْتِلَاءِ التي جعلها الله غاية لخلقها، قال تعالى :

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٣٦) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرَ وَإِنَّمَا كَفَرَ ﴿٣٦﴾ وقال تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(٣٧) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿٣٧﴾.

مكان الابتلاء وزمانه :

تمتد الحياة الدنيا من ابتداء خلقها إلى نهايتها لتكون محلاً للابتلاء، يقول المحاسبي : (اعلم أن الدنيا كلها : كثيرها وقليلها، حلوها ومرها، أولها وآخرها، وكل شيء من أمرها بلسوى من الله تعالى للعبد واختبار)^(٣٨)، ولتكون زماناً للامتحان، يشمل كل حياة الإنسان منذ تكليفه إلى مماته، قال تعالى : ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(٣٩)، قال تعالى مقرراً حقيقة وقوع الدنيا محلاً وزماناً للابتلاء : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٤٠)، وقال صلى الله عليه وسلم مبيناً أن الدنيا مهية لاختبار الإنسان، ومحفراً مغبة الافتتان بها : «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا»^(٤١).

هذه طبيعة خلق الحياة الدنيا تجعل «من المستحيل أن يخلو المرء فيها من كوارث تصيبه، وشدائد تحل بساحته، فكم يخفق له عمل، أو يخيب له أمل، أو يموت له حبيب، أو يمرض له بدن، أو يفقد منه مال.

حتى قال الشاعر يصف الدنيا :-

جُبلت على كدر وأنت تريدها صفواً من الآلام والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار^(٤٢)
حقيقة سنة الابتلاء :

تستعمل كلمة السُّنة في اللغة بمعنى : الطريقة الجارية^(٤٣) ، وعرفها ابن تيمية بأنها : (العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول)^(٤٤) ، وقد بين الله سبحانه في غير موضع من القرآن الكريم أن السنة لا تبدل، ولا تتحول، قال تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾^(٤٥) ، وقال تعالى : ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾^(٤٦) ، وذلك ليحصل الاعتبار من اقتران الشيء بمثله والعلم بأن حكمه مثل حكمه.^(٤٧)

ومضت سنة الله في أن يبستلي الإنسان لتظهر عظمة ملك الله تعالى لخلقه، وتصرفه المطلق في عبادته، ومكنون علمه المتعلق بأعمالهم، وما يستحقون عليه من جزاء،^(٤٨) والله سبحانه يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء، ولكن الابتلاء يكشف للناس ما هو معلوم عند الله تعالى، مغيب عن علم البشر ليحاسبهم على ما يقع من أعمالهم، لا على مجرد علمه عنهم، وهو فضل من الله تعالى وعدل^(٤٩) ، قال تعالى مخبراً عن سنة الابتلاء وجريانها على هذا التقدير في المجتمعات البشرية في الحقب الزمنية المختلفة : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾^(٥٠) ، وهذه السنة لم تستثن أحداً مهما علت مرتبته عند الله تعالى ؛ حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أدركتهم، بل كان وقعها عليهم أشد من غيرهم، قال تعالى في سياق خبر دعوات الرسل مع أقوامهم ، وانتهاء بدعوة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ

فَأَنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَتَأَيَّدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَآوَدُوا وَحَتَّىٰ آتَيْنَاهُم نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّئِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٥١﴾

وقد جرت سنة الله في الابتلاء وفق ما ظهر منها على مايلي :-

١ - ابتلاء جميع الناس بالشر والخير ، فيصابون بما يثقل عليهم كالمرض والفقر

والشدة، كما يختبرون بما يريحهم كالنعمة التي تجعل حياتهم في رفاة ورخاء وسعة^(٥١)، قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾^(٥٢)، ومن هؤلاء عباده المؤمنين ، قال تعالى مؤكدا على بلائه للمؤمنين : ﴿ تَبْلُوكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَسْتُمْ عَنْهَا بِالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾^(٥٣)

يقول محمد عبده في تفسيره لهذه الآية : إن ما وقع من الابتلاء للأنفس والأموال في غزوة أحد، والطعن في تلك الواقعة، ليس آخر ابتلاء لكم أيها المؤمنون؛ بل لابد أن تبطلوا بعد ذلك بكل هذه الضروب، وتجري فيكم سنته تعالى في خلقه، فلا تظنوا أنكم بإيمانكم اعتصمتم بالمنعة، وأمنتم حوادث الكون، فإنه لابد أن يعاملكم الله تعالى كما يعامل الأمم، معاملة المختبر المبتلى.^(٥٤)

٢ - اختلاف حالة الابتلاء بين الناس على حسب ما منحهم الله تعالى من

المواهب والأرزاق كالعلم والجاه والمال والصحة والولاية؛ ليظهر مدى قيامهم بما كلفهم الله فيها من أفعال وتروك، وليختبرهم فيما آتاكم الله من نعم^(٥٥)، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلْقَ الْأَرْضَ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَاءِ آتَانِكُمْ إِنْ رَبُّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٥٦).

٣ - زيادة الابتلاء وقلته بقدر الإيمان. فمن كان أكثر إيمانا كان أكثر بلاء، أي أكثر عرضة للمحن والمصائب وطروق المنغصات والمتاعب ممن دونه إيمانا، ويشمل الابتلاء كل ما يتأذى به الإنسان من أذى حسي أو معنوي، فيبتلى الرجل على حسب دينه، أي بقدر قوة إيمانه وشدة يقينه، فإن كان في دينه صلبا، أي قويا اشتد بلاؤه كمية وكيفية ونوعا، وإن كان في دينه رقيقا أي ضعيفا وناقصا ولينا رق بلاؤه، وكان هينا سهلا^(٥٨)، ولما كان الأنبياء أقوى الناس إيمانا، وأشدهم يقينا كان بلاؤهم أكثر من غيرهم، قال صلى الله عليه وسلم في شأن ابتلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حينما سئل: «أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء ثم الأئمة فالأئمة؛ فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»^(٥٩)، وإنما كان بلاء الأنبياء أشد من غيرهم (لأن الأنبياء يتلذذون بالبلاء كما يتلذذ غيرهم بالنعماء، ولأنهم لو لم يتلوا لتوهم أتباعهم فيهم الألوهية، وليتهون على الأمة الصبر على البلية، ولأن من كان أشد بلاء كان أشد تضربا والتجاء إلى الله تعالى).^(٦٠)

٤ - جريان سنة الابتلاء وفق مجرى السنن الكونية المطردة والثابتة، فعلى المؤمن أن يكشف هذه السنن، ويتعرف على أسبابها، فيأخذ منها العبرة، قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَّسْتُ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾^(٦١)، ذلك أن المؤمن يتعرض لهذه السنن كغيره من سائر الناس، قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾^(٦٢)، قال المراغي في تفسيره للآية: (أي والله لنمتحنكم ببعض ضروب الخوف من الأعداء، وبعض المصائب المعتادة في المعاش كالجوع ونقص الثمار؛ إذ كان أحدهم يؤمن فيفصل من

أهله وعشيرته، ويخرج صفر اليدين، حتى لقد بلغ من جوعهم أن كانوا يتبلغون بتمرات يسيرات، ولا سيما في غزوتي الأحزاب وتبوك، وبنقص الأنفس بالقتل والموت من اجتواء المدينة، فقد كانت حين الهجرة بلد وباء وحمى، ثم حسن مناخها، وفي الآية إيماء إلى أن الانتساب إلى الإيمان لا يقتضي سعة الرزق، وبسط النفوذ، وانتفاء المخاوف؛ بل كل ذلك يجري بحسب السنن التي سنّها الله لخلقه، فتقع المصائب متى وجدت أسبابها).^(٦٣)

المبحث الثاني : أنواع الابتلاء ومظاهره :

تصيب المؤمن في الدنيا أنواع كثيرة من الابتلاءات؛ يتفاوت قدرها، ويختلف شكلها، وتعدد صورها؛ لتحقيق حكمة الله تعالى وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التلون في البلاء فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(٦٤).

أنواع الابتلاء :

ينقسم الابتلاء في الدنيا والآخرة بالنسبة لعموم المبطلين من المؤمنين والكافرين إلى نوعين: مطلق ومقيد.

فأما المطلق في الدنيا؛ فالكفر والمعصية وسوء الخلق، وهي التي تفضي إلى البلاء المطلق في الآخرة.

وأما المقيد في الدنيا فالفقر والمرض والخوف وسائل الابتلاءات التي لا تكون بلاء في الدين، وأما في الآخرة : فالابتلاء بالبعد من الله تعالى ؛ إما مقيدا بمدة كما يحصل للمؤمن العاصي الذي يعذب في النار على ذنوبه، وإما مطلقا أبدا^(٦٥) كما يحصل للمشرك الخالد في النار عقوبة على شركه الذي لا يغفره الله له، فالابتلاءات في الدنيا ينتفع بها المؤمن إذا كانت من قسيم الابتلاء المقيد الذي

يستطيع مواجهته بالصبر عليه مثل: المصائب التي لا صنع للعبد فيها كالأعراض والفقر وغيرها؛ فإنه يتوجب الصبر عليها^(٦٦)، أما إن كانت من المطلق فلا؛ ذلك (أن الكفر بلاء، ولا معنى للصبر عليه، وكذا المعصية؛ بل حق الكافر أن يترك كفره، وكذا حق العاصي)^(٦٧) أن يترك معصيته.

مظاهر الابتلاء :

يختلف شكل الابتلاء الذي يتعرض له المؤمنون ، ويتفاوت قدره، ولكن مرده إلى مظهرين أشار إليهما القرآن في قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾^(٦٨)، وفي قوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَهُمْ بِالْخَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٦٩)..

المظهر الأول : الابتلاء بالشر :

ويقصد به اخبار الله تعالى عبده بالمضار ليصبر،^(٧٠) وليتكشف مدى احتمال المبتلى وثقته بربه ورجائه في رحمته.^(٧١)

من صوره :

- ١ - أن يبتلى المؤمن بفقد عزيز عليه كأبيه أو أمه أو ولده، قال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تعالى : «ما لعبدى المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة».^(٧٢)
- ٢ - أن يبتلى المؤمن بفقد جزء من جسمه كذهاب بصره أو سمعه أو رجله أو يده، قال صلى الله عليه وسلم : «إن الله تعالى قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة، يريد عينيه».^(٧٣)
- ٣ - أن يبتلى المؤمن بمرض عضال أو فتاك، «سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطاعون، فأخبرها أنه كان عذاباً يبعثه الله على

من يشاء، فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين، فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد»^(٧٤)، وفي حديث آخر أن امرأة سوداء «أتت النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف فادع الله لي، قال: إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك. فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف فادع الله لي أن لا أتكشف، فدعا لها»^(٧٥).

إلى غير ذلك من الصور الكثيرة التي يُبتلى بها الصالحون كالابتلاء بالخوف والجوع وضيق الرزق والقتل، قال تعالى إشارة إلى تعدد مظاهر الابتلاء: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخُسُوفِ وَالْجُسُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(٧٦).

مصيبة الدين :

هي أعظم ما يبستلى به المؤمن من صور الابتلاء بالشر، فإنها القاصمة المهلكة، ونهاية الخسران الذي لا ربح معه تكون في الكفر بعد الإيمان، والحرمان الذي لا طمع معه يكون في استصغار الذنوب والإصرار على المعصية، وأول مصائب الدين موت النبي صلى الله عليه وسلم الذي انقطع به الوحي من السماء، وانقطعت به النبوات، وكان أول ظهور الشر والفساد بارتداد العرب عن الإسلام، وأول انقطاع عرى الدين ونقصانه، وفي غاية التسلية عن كل مصيبة تصيب العبد^(٧٧)، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، ولما نفضنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأيدي وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا»^(٧٨)، وعموماً فإن مصاب الدين لا فداء له، فهو أعظم من مصيبة النفس والمال؛ لأن المال يخلفه الله تعالى، وهو فداء الأنفس، والنفس فداء الدين، والدين لا فداء له^(٧٩)، يدل له أنه لما خير يوسف عليه الصلاة والسلام بين أن يصاب في دنياه فيسجن ويكون من الصاغرين، وأن يصاب في دينه فيصبو إلى

النسوة ويكون من الجاهلين، كما قالت امرأة العزيز للنسوة: ﴿وَلَقَدْ رَودُّهُ عَنْ
نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَاءِ امْرَأَتِهِ لَيَنَّجَنَ وَيَكْسِرُوكُمْ مِّنَ الصَّغِيرِينَ﴾ ^(٨٠) لما
خير بين الأمرين اختار أهونهما وهو مصيبة الدنيا، فقال: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ
مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ ^(٨١)، وكان مما علمه الرسول صلى الله عليه وسلم لأئمة أن
يقولوا: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك... ولا تجعل
مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا». ^(٨٢) ذلك أن كل
مصيبة في دنيا الإنسان قد تعوض بخير منها أو مثلها، أما مصيبة الدين فخسارة لا
تعوض. ^(٨٣)

المظهر الثاني : الابتلاء بالخير :

ويقصد به اختبار الله تعالى عبده بالمسار ليشكر ^(٨٤)، وليظهر مدى إيقانه في
فضل الله تعالى عليه، ومدى خوفه من جحود نعمة الله عليه أو زوالها عنه
بسوء عمله.

ومن صور الابتلاء بالخير :

- ١ - أن يتلى العبد بالغنى وكثرة العرض، قال صلى الله عليه وسلم: «فوالله، ما
الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت
على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهمهم» ^(٨٥).
- ٢ - أن يتلى العبد بزيينة الدنيا وزهرتها، قال تعالى ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ
النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ
وَالْأَنْفَكِ وَالْحَرَثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ ^(٨٦)،
وقال صلى الله عليه وسلم: «إني مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح
عليكم من زهرة الدنيا وزينتها» ^(٨٧).

٣ - أن يتلى العبد بحب الرياسة والجاه فيطلبها، ويحرص عليها، فيكون فيها هلاكه، قال صلى الله عليه وسلم: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة، وبئست الفاطمة»^(٨٨) واستحقت الإمارة هذا النعت لما فيها من حصول الجاه ونفوذ الكلمة وتحصيل اللذات، لكنها ببئست الفاطمة عند الانفصال عنها لموت أو عزل، فضلا عما يترتب عليها من التبعات في الآخرة^(٨٩).

الفرق بين المظهرين :

الابتلاء بالخير أشد وطأة من الابتلاء بالشر؛ وإن خيل للناس أنه دونه، فإن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر؛ ولكن القلة القليلة التي تصمد للابتلاء بالخير^(٩٠)، وذلك أن القيام بحقوق الصبر مع الابتلاء بالشر أيسر من القيام بحقوق الشكر مع الابتلاء بالخير، ولهذا التعليل تكون المنحة أشد من الامتحان^(٩١)، ويؤكد الغزالي على حاجة الإنسان إلى الصبر عندما يتلى بما تهواه نفسه من الصحة والسلامة والمال والجاه وجميع الملاذ، فيقول : (ما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور، فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة منها أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان).^(٩٢) كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْسَاقٌ ۖ أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْسَاقٌ ۚ ﴾^(٩٣) وقد استشعر الصحابة الفرق في الموقف من البلاءين، قال عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه : (ابتلينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالضراء فصبرنا، ثم ابتلينا بالسراء بعده فلم نصبر).^(٩٤)

نعم إن الابتلاء بالشدة قد يمنح الإنسان العزم، ويستحثة على الصبر، ويجند قواه للمقاومة، فيقدر على الصمود وتحمل الشدة، أما الرخاء فينيم الأعصاب، ويفقد العقل قدرته على اليقظة والتحكم، والنفس قدرتها على المقاومة؛ لذلك

يجتاز كثير من الناس مرحلة الشدة بنجاح حتى إذا ابتلوا بالرخاء سقطوا فيه إلا من عصم الله تعالى^(٩٥) من أنبيائه، وأعان من أوليائه الذين لا تفوتهم خيرية البلاء في حالي الشدة والرخاء، ممن شملهم وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عجبا لأمر المؤمن . إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»

المبحث الثالث : حكمة الابتلاء :

يقع الابتلاء وفق حكمة مقدره، وتدير قاصد ، وينتهي إلى ما شاء الله من العواقب، وقد تنكشف حقائق الحكمة الإلهية، ويظهر أثر التدبير الرباني من المحن ليدركها الناس، ويتنفعوا بها ، ويزدادوا ثقة بخالقهم، وإيماناً مع إيمانهم، ومع هذا فالمؤمن يرجو ألا يتعرض لبلاء أو محنة، ويتطلع إلى عافية الله ورحمته؛ فإذا أصابه بلاء من الله رضي وحمده وهو يدرك أن وراءه حكمة، وسلم لمشيشة الله وهو يرجو عون الله، ويأمل رحمته وفضله.^(٩٧)

وتتكشف حكمة الله في الابتلاء في وجوه عدة، منها :

أولاً : إظهار الناس على حقيقتهم :

فليس مثل الابتلاء وسيلة في كشف باطن الناس، وما يدعونه من إيمان وصدق وزهد وصبر مثلاً، فإنه في حال الرخاء كل يدعي الإيمان ، ويتظاهر بالعبادة؛ لكن حين تضطرب الدنيا، ويتعرض هذا المدعي للمحنة تبين الحقيقة التي لا تعرف إلا عن طريق الابتلاء، وقد حكى القرآن الكريم خبر ضعيف الإيمان الذي يتخذه صفقة يتمسك به في سوق المصلحة ما دام يدر ربحاً، ويحقق له نفعاً، فإذا تعرض للفتنة انقلب على وجهه، وظهرت حقيقة أمره، قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِإِيمَانِهِ أَصَابَهُ فَتْنَةٌ فَنَقَلَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝﴾^(٩٨)، وعن حال مدع آخر قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا

كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٩﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ
الْمُنَافِقِينَ ﴿١٠٠﴾

ويبين القرآن كذلك أن الابتلاء محك يميز الخبيث من الطيب، قال تعالى :
﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى
الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ إِنَّ تَوْفِيقَهُ وَتَقْوَاهُ فَلَكُمْ أَجْرٌ
عَظِيمٌ﴾ (١٠٠)، يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: (أي لا بد أن يعقد شيء من
المحنة، يظهر فيه وليه، ويفضح به عدوه، يعرف به المؤمن الصابر والمنافق
الفاجر). (١٠١)

ثانياً : تطهير النفوس من شوائب الكفر والنفاق:

ذلك أن الابتلاء يخلص النفوس من كل شائبة تكدر صفو الإيمان، ومن كل
رياء يفسد القلوب، فإن الإنسان في حال الرخاء قد يدعي الإيمان، ويتظاهر
بالصالحات، ولا يكشف حقيقته إلا المحن التي هي كير العبد الذي يسبك به
حاصله؛ فإما أن يخرج ذهباً أحمر، وإما أن يخرج خبثاً كله، فإن لم ينفعه هذا الكير
في الدنيا فبين يديه الكير الأعظم في الآخرة، ولا ريب أن كير الدنيا ومسبكها خير
للعبد من كير الآخرة، (١٠٢) وهكذا فإن المحنة من أعظم عوامل تكوين الإيمان
ونموه وصلابته، وتمكين صاحبه من الصمود في وجه العوادي والناثبات، ففي نار
المحنة يذهب الخبث، ويبقى الطيب، ويقوى الخالص، ويخرج معدنا مصقولاً
جميلاً متماسكاً إلى أبعد الحدود، (١٠٣) وفي القرآن جاء المثل الناري في سورة
الرعد يعبر عن هذا المعنى، قال تعالى: ﴿... وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ

مَتَّعَ زَيْدٌ مِثْلَهُ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّيْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكِّتُهُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٠٤﴾

وتستنفر المحنة قوى المبتلين، وتشحذ طاقاتهم، وتفتح في قلوبهم منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن من نفسه إلا تحت مطارق الشدائد وضغط الأحداث^(١٠٥)؛ فتربى النفوس على الصبر، وتمتحن القلوب للتقوى، ويصلب العود، وتثبت في مواجهة أعداء الله من شياطين الإنس والجن وشهوات النفس ونزغات الهوى، وفي القرآن تتكرر صور البلوى للمرسلين والصالحين لهذا الغرض، ومن تلك الصور صورة يوسف عليه السلام وهو محاط بإغراءات الشهوة، حينما راودته امرأة العزيز عن نفسه، وغلقت الأبواب، وقالت: هيت لك. لقد ثبت يوسف عليه الصلاة والسلام على العفة، وصبر على البلوى، يقول ابن تيمية: (كان صبر يوسف عن مطاوعته امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الحب، وبيعه وتفريقه بينه وبين أبيه؛ فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره، ولا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضى ومحاربة النفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة)^(١٠٦) والقيام بهذا العمل، وهذه صورة أخرى، صورة صبر المؤمنين في غزوة الأحزاب، وقد تألبت عليهم قريش ويهود، وحاصروهم في ديارهم، وهم يفوقونهم عددا وعدة، قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ هَذَا لِكَيْ يُبَيِّنَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١٠٧﴾، ومع هذه الشدة كانت ثقة المؤمنين بالله وإيمانهم بموعوده وصبرهم على قدره ورضاهم بقضائه مصدرا لاطمئنانهم، ومعتمدا في

التغلب على بلواهم، قال تعالى واصفا موقفهم هذا: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾. (١٠٨)

ثالثاً: تكفير سيئات المبتلى، ونيله الأجر بغير حساب :

ذلك أن المبتلى إذا صبر على البلوى ، واحتسب أجرها كفر الله عنه سيئاته، وتجاوز عن هفواته، وحط عنه ذنوبه، وأعظم ثوابه، قال صلى الله عليه وسلم: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء» (١٠٩)، وقال صلى الله عليه وسلم: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها» (١١٠)، وفي هذا المعرض يبين ابن تيمية أن المؤمن إذا أُوذِيَ على إيمانه بأن يطلب منه الكفر والفسوق والعصيان؛ فإن لم يفعل أُوذِيَ وعوقب، فاختار الأذى والعقوبة على ترك دينه كالحبس أو الخروج من بلده، مثل ما جرى للمهاجرين حين اختاروا فراق الأوطان على فراق الدين، وكانوا يعذبون ويؤذون، أو إذا أُوذِيَ المؤمن بسبب طاعته لله تعالى ورسوله هو بذلك على طريقة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم من المهاجرين الأولين؛ فهو مثاب على ما يؤدي به، ويكتب له عمل صالح، كما يثاب المجاهد على ما يصيبه من الجوع والعطش، وعلى غيظه الكفار. (١١١)

كما أن المبتلى إذا صبر على المصيبة نال ثناء الله عليه عند الملائكة، واستحق الرحمة، وفاز بالثواب من غير حساب، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ وقال تعالى: ﴿... إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ

وهكذا تظهر حكمة الله في الابتلاء ليكون مطهرا للنفس من أدناس الذنوب، منقيا لها من رجس الآثام، قال صلى الله عليه وسلم: «ولا يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض ما له خطيئة»^(١١٤). فما أعظم الثواب الذي اذخره الله تعالى للمبتلى! وما أجزله! وما أنفعه للمحتسب يوم القيامة! قال صلى الله عليه وسلم: «يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض»^(١١٥). قال بعض السلف: (لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس)^(١١٦).

رابعا: ارتفاع منزلة المبتلى عند الله تعالى^(١١٧)، والفوز بمحبته:

فإن المبتلى يدرك بالمحنة الدرجة الرفيعة عند الله تعالى التي لا يبلغها بعمله في الدنيا، قال صلى الله عليه وسلم: «إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده ثم صبر حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له منه»^(١١٨) وفي رواية «إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة الرفيعة فما يبلغها بعمله فما يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغها»^(١١٩)، وترتفع درجة المبتلى بما يصيبه من مكروه، قل أو كثر، قال صلى الله عليه وسلم: «إن الصالحين يشدد عليهم، وإنه لا يصيب مؤمنا نكبة من شوكة فما فوق ذلك إلا حطت به عنه خطيئة، ورفع بها درجة»^(١٢٠)؛ وذلك خير للمؤمن ينفعه الله بالابتلاء في استخراج أدواء لو بقيت أنقصت ثوابه، وأنزلت درجته مثل ما ينفعه الله الجسد بالدواء الذي يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته، فكيف إذا كان ينال به تمام الأجر، وعلو

المنزلة، ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه^(١٢١)، كما قال صلى الله عليه وسلم: «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له». (١٢٢)

ويكفي المبتلى عوضا عما يناله من بلوى ما يتحصل عليه بكلمات الحمد والاسترجاع على ما أصابه من منزلة عالية تبوئه بيت الحمد في الجنة، في الحديث يقول الله تعالى لملائكته: «ماذا قال عبيدي؟»، فيقولون حمدك واسترجع. فيقول الله تبارك وتعالى: ابنوا لعبدي بيتا في الجنة، وسموه بيت الحمد». (١٢٣)

ويحظى المبتلى كذلك بمحبة الله تعالى وإرادة الخير له، قال صلى الله عليه وسلم: «إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد شرا أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة»، (١٢٤) وقال صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيرا يصب منه». (١٢٥)

المبحث الرابع: موقف المؤمن من الابتلاء:

يتعرض المؤمن في الدنيا للابتلاء لا محالة، إمضاء لسنة الابتلاء التي لا تحابي أحدا على كر العصور والأزمنة، قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾^(١٢٦)، ولا ريب أن معرفة طبيعة السنة تقتضي أن يتعامل معها المؤمن بوعي على أنه إنسان غير محابي ولا مستثنى، وأن يستثمر حكمها في صالحه بما يمكنه من تجاوز آثارها، واستدرار منافعها؛ في حين أن تجاهل ذلك أو الغفلة عنه يورث هزيمة النفس أمام آلام البلوى ومضاعبها.^(١٢٧)

استدعاء الابتلاء :

إذا كان الابتلاء يحقق حكما عظيمة، ويعود على صاحبه بمنافع جمة، فهل للمؤمن أن يستدعي البلاء، ويعمل على وقوعه، ولا يحرص على دفعه لتطول مدته، وينتفع بآثاره، ويثاب عليه؟.

للإجابة على هذا الاستفهام لابد من التوضح أنه لا وجه لذلك من عدة أمور:-

— أن المؤمن مطالب بتوقي الأذى، ولا يجب عليه مقابله، أو قصد التعرض له؛ بل عليه أن يتوقاه حسب الظروف والأحوال؛ ومن ذلك لقاء العدو، قال صلى الله عليه وسلم: «أيها الناس، لا تسمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا»^(١٢٨) وقال صلى الله عليه وسلم: «سلوا الله المعافاة، فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيرا من المعافاة».^(١٢٩)

— أن الابتلاء صعب على النفس ، فلا يجوز الحرص عليه ، ولا الرغبة فيه ؛ لذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستعيز منه في دعائه ، فيقول : «أجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة» .^(١٣٠)

— أن الابتلاء مجهول العاقبة ، فقد يحس المؤمن من نفسه القدرة على الثبات ومن ثم لا يبالي بالابتلاء ، فإذا نزل به ضعف عن التحمل ، ووقع في الافتتان ، فإنه جاء في الحديث : «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه . قالوا : وكيف يذل نفسه؟ . قال : يتعرض من البلاء لما لا يطيق» .^(١٣١)

— أن الله جعل للمكروه مندوحة ، أن يقول كلمة الكفر تخلصاً لنفسه من الأذى والتلف ، فكيف يعرض نفسه لهما ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ ^{١٣٢} من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ^(١٣٣) .

قال القرطبي : (أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان) .^(١٣٣)

— أن الله شرع الهجرة من دار الكفر تخلصاً من الأذى : قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِقًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ^(١٣٤) فقد هاجر الصحابة رضي الله عنهم من مكة إلى الحبشة حيث الأمان فراراً من العذاب الذي قد يصبهم من جراء البقاء في مكة ، والتعرض للابتلاء ، قال القرطبي : (الفرار من الأذية في البدن ... فضل من الله أرخص فيه ، فإذا خشي على نفسه فقد أذن الله في

الخروج عنه والفرار بنفسه ليخلصها من ذلك المحذور^(١٣٥).

— أن النفوس فطرت على الحذر من دواعي المرض، وتحاشي المصائب، ودفعها بالعلاج، ومن فعل ذلك لم يقدح في إيمانه^(١٣٦)؛ بل من الإيمان اتخاذ الأسباب الواقية من الوقوع في البلاء، والدافعة له.

ويتحصل من هذه الأمور أنه مهما يكن للابتلاء من حكم ومنافع فإنه ليس أفضل للمؤمن في الدنيا من العافية، ذلك أن البلاء كما يقول الغزالي لا يصير نعمة إلا (باعتبارين: أحدهما بالإضافة إلى ما هو أكثر منه إما في الدنيا أو في الدين، والآخر بالإضافة إلى ما يرجى من الثواب، فينبغي أن نسأل الله تمام النعمة في الدنيا، ودفع ما فوقه من البلاء، ونسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته؛ فإنه قادر على أن يعطي على الشكر ما لا يعطيه على الصبر).^(١٣٧)

موقف المؤمن من الابتلاء :

إذا استحکم القضاء، ووقع البلاء ؛ فإن المؤمن يقف من الابتلاء المواقف الآتية :

أولاً : أن يسلم لأمر الله وقضائه: فلا ييأس على ما فاتته، ولا يفرح بما جاءه، ويوقن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، قال تعالى :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَاهُا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۚ إِنَّكُمْ وَأَلَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ ١٣٨ ﴾

فما فائدة مشاعر التسخط والأسى أو الزهو والفرح وهي لا ترد قضاء، ولا تمنع قدراً؟ ؛ بل تعود عليه بالحنن أو الغرور، فتضاعف مصابه،

وتصيبه بشيء من الجزع، وكان قادرا على أن يدفعها بالحمد، ويبدلها ثوابا بالتسليم، قال صلى الله عليه وسلم : « فمن رضي فله الجنة، ومن سخط فله السخط » .^(١٣٩)

ثانيا : أن يستعين المبتلى بالله في محنته، ويتكل عليه في مصيبته، ويطلب عونه على بلواه، ويستبق ثقته برحمته وقدرته على كشف ضره، ويأمل في عوضه وجزائه (فعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخف حمل البلاء؛ لشهود العوض... كما يخف على كل متحمل مشقة عظيمة حملها، لما يلاحظه من لذة عاقبتها، وظفره بها)^(١٤٠)، وليحذر من أن يفقد ثقته في عون الله له في الدنيا مهما اشتد الخطب وعظم المصائب، أو أن يقنط من رحمة الله في المحنة فإن فعل فما ذلك بمبدل ما به من البلاء، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ تَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ يَسِبَ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾^(١٤١) لا يذهب غيظه ، ولا تندفع بلواه؛ بل يفقد كل نافذة مضيئة، وكل رجاء في الفرج، وسيستبد به الضيق، ويثقل على صدره الكرب، ويزداد بلاء على بلائه، وكربا على كربيه.^(١٤٢)

ثالثا : أن يعلم المبتلى أن الذي ابتلاه أحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين، وأنه لم يرسل إليه البلاء ليهلكه، ولا ليعذبه به، وإنما ليمتحن إيمانه وصبره ورضاه، وليسمع تضرعه وابتهاله، وليراه طريحا ببابه، لا ئذا بجنابه، مكسور القلب بين يديه، رافعا الشكوى إليه، قال عبد القادر الجيلاني: (يا بني ! إن المصيبة ما جاءت لتهلكك، وإنما جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك. يا بني! القدر سبع، والسبع لا يأكل الميتة).^(١٤٣)

رابعا : أن يتحمل المبتلى ما أصابه على أنه خير له : فإن الله سبحانه وتعالى لا يقتضي لعبده المؤمن قضاء إلا خيرا له، ساء ذلك القضاء أو سره، فما يقضيه الله

من المنع لعبده المؤمن عطاء وإن كان في صور المنع، ونعمة وإن كانت في صورة محنة، وبلاؤه عافية وإن كان في صورة بلية، ولكن لجهل العبد وظلمه وقصر نظره لا يعد العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذبه في العاجل، وتمتع به في القريب، وكان ملائما لطبعه^(١٤٤) خاليا من الأذى، وما علم أن في ذلك شحذ قواه، وعلو همته، وتكفير سيئاته، ورفع درجاته، ومضاعفة حسناته.

ذلك أن الابتلاء بالنعم والمصائب يدخل في معنى الخير المطلق الذي يريده الله لعباده، فهو الوسيلة إلى تحقيق التمييز بين النفوس الطيبة والخبيثة^(١٤٥)، وكشف خباياها، ومعرف صبرها ورضاها، هذا التمييز خير للمؤمن وإن حدث أحيانا في حال من الشدة، وكشف خباياها، ومعرف صبرها ورضاها، هذا التمييز خير للمؤمن وإن حدث أحيانا في حال من الشدة والمشقة عليه.

خامسا : أن يدفع المبلى مرارة الألم وشدة المصيبة في الدنيا برجاء ثواب الله تعالى في الآخرة : قال صلى الله عليه وسلم « ما يصيب المسلم من نصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها »^(١٤٦) فقد أصاب أحد الصالحين شيء في قدمه فلم يتوجع، ولم يتأوه، بل ابتسم واسترجع، فقيل له : يصيبك هذا ولا تتوجع ! فقال : إن حلاوة ثوابه أنستني وجعه^(١٤٧).

سادسا : أن يتذرع المبلى بالصبر : فمهما استحكمت الأزمان، وتعمدت حبالها، وترادفت الضوائق، وطال ليلها، فالصبر وحده يشع للمسلم النور العاصم من اليأس، والهداية الواقية من القنوط، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي وصف الصبر، فقال : «الصبر ضياء»^(١٤٨) فهو يضيء طريق المؤمن مهما اشتدت ظلمته، ويهون الأمور مهما عظمت خطوبها، وهو قرين الظفر في جميع

الأحوال، فإن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، والعسر مع اليسر، وأعظم ما يظفر به المبتلون الصابرون معية الله التي وعد بها عباده، فقال: ﴿وَأَصْبِرْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ^(١٤٩) ، وهو أخيه ؟ المؤمن يجول في هذه الدنيا ثم يرجع إليه ، يستعين به على نوائب الدنيا والدين ، امثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ ^(١٥٠) ويعتمد عليه في الشدائد موقناً بأنه مع التقوى خير سلاح يبطل كيد المعتدين، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ^(١٥١) وليعلم أن الصبر على ابتلاء التكليف بفعل الطاعة واجتناب المعصية أكمل من الصبر على أحكام الله القدرية صبر ضرورة، يتساوى في وقوعها المؤمن والكافر؛ لذا كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام على ما نالهم في دعوتهم إلى الله تعالى باختيارهم وفعلهم ومقاومتهم قومهم أكمل من صبر أيوب عليه الصلاة والسلام فيما ناله في جسده وماله وولده من ابتلائه، وامتحانه بما ليس مسبباً عن فعله ^(١٥٢) .

سابعا : أن يطفىء المبتلى نار مصيبته ببرد التأسي بأهل الابتلاء : ولينظر يمنية

فهل يرى إلا محنة؟ ثم ليعطف بسرة فهل يرى إلا حسرة؟ وأنه لو فنش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى بفوت محبوب، أو حصول مكروه، وأن شرور الدنيا أحلام نوم أو كظل زائل، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً، وإن سرت يوماً ساءت دهرًا، وإن تمتعت قليلاً منعت طويلاً، وما ملأت داراً فرحة إلا ملأتها عبرة، ولا سرته بيوم سرور إلا خبأت له يوم شرور، قال ابن مسعود رضي الله عنه: (لكل فرحة ترحه، وما ملئ بيت فرحاً إلا ملئ ترحاً) ^(١٥٣) .

ثامنا : أن يهون المبتلى ما نزل به من بلية بتصور نزول أعظم منها: فإن كل

مصيبة هناك يوجد ما هو أكبر منها، فقد قيل: (بعض الشر أهون من بعض) والمؤمن ينظر بعين بصيرته فيحمد الله تعالى على أمرين: - أولهما: دفع ما كان

يمكن أن يحدث من بلاء أكبر، وثانيهما: بقاء ما كان يمكن أن يزول من نعمة غامرة وفضل جزيل، فهو ينظر إلى النعمة الموجودة قبل أن ينظر إلى النعمة المفقودة، وينظر إلى البلاء المتوقع بجانب نظره إلى البلاء الواقع، ولا ريب أن هذا يحدث الارتياح والرضا في نفس المبتلى^(١٥٤).

وأن يهون المبتلى شدة البلية بتلمح سرعة زوالها: فإنه لولا كرب الشدة ما رجيت ساعات الراحة، وليعلم أن مدة مقامها كمدة مقام الضيف الذي يتفقد حوائجه في كل لحظة، وينتهي للرحيل في كل ساعة، فكذلك المؤمن في الشدة ينبغي له أن يتفقد أحوال نفسه، ويراقب جوارحه مخافة أن يبين من لسانه كلمة تسخط، ومن قلبه قنوط، فإن الشدة ما تفتأ أن تزول، ويلوح فجر السلامة^(١٥٥)، وأن لا يستطيل زمن البلاء، ويضجر من طول الرجاء: فإن المؤمن متعب بالدعاء فإنه كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل، قالوا: يا رسول الله، كيف يستعجل؟ قال: دعوت ربي فلم يستجب لي»^(١٥٦) وليتأس بيعقوب عليه الصلاة والسلام الذي لم يتغير رجاؤه في أن يرد الله إليه ابنه على طول فقدته لهما، فقد كان قوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾^(١٥٧)، فلا ييأس من روح الله تعالى وإن طال البلاء^(١٥٨)، وعظم الافتتان.

شبهة:

قد تجول في بعض العقول شبهة حين ترى أكثر الكفار والعصاة وأعداء الدين متروكين ممتعين في ظاهر الأمر بالقوة والمال والجاه كما هو حال الكفار المعاصرين! مما يوقع الفتنة في قلوبهم، وقد يحملهم على الظن بالله ظن الجاهلية، فيحسبون أن ما عليه هؤلاء هو الحق، وإلا لم يتمتعوا ويمكنوا ثم يغلبوا في كل مرة!، إلى غير ذلك من الخواطر والشبهات الباطلة والوهم والظن الفاسد،

والجواب على هذه الشبهة من عدة وجوه:-

الوجه الأول: أن الأمر ليس كما يظن هؤلاء ، فإن ما يروونه من إملاء الله لهم، وما يتمتعون به من حظوظ الدنيا إنما هو فتنه استدراج ^(١٥٩) ، أو طيبات عجلت لهم ثم ينتظرهم العذاب المهين، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّا أَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ^(١٦٠).

الوجه الثاني: أن الأمور لا يحكم عليها بمجرد ظاهرها، فعسى أن يكون الأمر في ظاهره مكروها، ويجعل الله في باطنه خيرا كثيرا، قال تعالى: ﴿...فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ^(١٦١).

الوجه الثالث: أن تمام الكلام في إبطال هذه الشبهة قد بينه ابن القيم رحمه فيما يلي:-

١ - أن ما يصيب المؤمنين من المحن والأذى والشرور دون ما يصيب الكفار، والواقع شاهد بذلك، وكذلك ما يصيب الأبرار في هذه الدنيا دون ما يصيب الفجار والفساق والظلمة بكثير.

٢ - أن ما يصيب المؤمنين في الله تعالى مقرون بالرضا والاحتساب، وذلك يخفف عنهم ثقل البلاء ومؤنته، فإنهم كلما شاهدوا العوض هان عليهم تحمل المشاق والبلاء، والكفار لا رضا عندهم ولا احتساب، وإن صبروا فصبر البهائم، وقد نبه تعالى على ذلك بقوله: ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ^(١٦٢) فاشتركوا في الألم، وامتاز المؤمنون برجاء الأجر والزلفى من الله تعالى.

٣ - أن ما يصيب المؤمنين في الدنيا من إدالة عدوهم عليهم، وغلبته لهم،

وأذاه لهم في بعض الأحيان من قبيل التمحيص والتهذيب، قال تعالى مبينا
 حكمة إدالة الكفار على المؤمنين يوم أحد: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ
 الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٦١) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ، وَتِلْكَ
 الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
 الظَّالِمِينَ (١٦٢) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٦٣) كما أن هذه الإصابة
 أمر لازم، لا بد منه، فهو كالحر الشديد، والبرد الشديد، والأمراض والهموم
 والغموم، تلك مما فطرت عليه الطبيعة والنشأة الإنسانية في هذه الدار؛
 اقتضته الحكمة الإلهية؛ فلو تجرد الخير في هذا العالم عن الشر، والنفع عن
 الضر، واللذة عن الألم لكان ذلك عالما غير هذا، وكانت تفوت الحكمة التي
 مزج لأجلها بين هذه الأمور المتضادة، وإنما يكون هذا التجرد في الدار
 الآخرة لا دار الدنيا التي خلقت على صفة هذا المزج.

٤ - أن ما يصيب الكافر والفاجر والمنافق من العز والنصر والجاه دون ما
 يحصل للمؤمنين بكثير، بل باطن ذلك ذل وكسر وهوان، وإن كان في الظاهر
 بخلافه، قال الحسن: (إنهم وإن هملجت بهم البراذين، وطققت بهم البغال
 فإن ذل المعصية لفي قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه) (١٦٤)

الهوامش

- (١) سورة الأحزاب / ٣٨.
- (٢) سورة فاطر / ٤٣.
- (٣) سورة آل عمران / ١٣٧.
- (٤) سورة الفجر / ١٥ - ١٧.
- (٥) الكشاف لأبي القاسم الزمخشري ١٨٩/٢.

- (٦) سورة يونس / ٣٠.
- (٧) سورة الصافات / ١٠٦.
- (٨) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني / ٦١.
- (٩) سورة محمد / ٣١.
- (١٠) سورة الأنبياء / ٣٥.
- (١١) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ١/ ١٥٥.
- (١٢) تهذيب اللغة للأزهري ٥/ ١٢١.
- (١٣) سورة الحجرات / ٣.
- (١٤) سورة الممتحنة / ١٠.
- (١٥) سورة الذاريات / ١٣.
- (١٦) نهذيب اللغة للأزهري ١٤/ ٢٩٦.
- (١٧) سورة يونس / ٨٣.
- (١٨) سورة الأنفال / ٢٨.
- (١٩) سورة العنكبوت.
- (٢٠) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني / ٣٧٢.
- (٢١) التمرينات في غريب القرآن للجرجاني / ١٤ والمفردات للأصفهاني / ٣٧٢.
- (٢٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني / ٣٧٢.
- (٢٣) سورة التوبة / ١٢٤ - ١٢٦.
- (٢٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٤٠٣.
- (٢٥) سورة يونس / ٢٨ - ٣٠.
- (٢٦) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤١٦.
- (٢٧) الفروق في اللغة / ٢١٠.
- (٢٨) ظاهرة المحنة لخالص جلبي / ٢٨.
- (٢٩) مدارج السالكين لابن القيم ٢/ ٢٢٣.

- (٣٠) رواه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، وقال: حديث حسن صحيح، رقم / ٢٣٩٧.
- (٣١) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي للمباركفوري ٧/ ٧٧.
- (٣٢) رواه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، وقال: حديث حسن غريب، رقم / ٢٣٩٦.
- (٣٣) مدارج السالكين لابن القيم ١/ ٤٠٨.
- (٣٤) سورة البلد / ٤.
- (٣٥) جامع البيان ٣٠/ ١٩٦.
- (٣٦) سورة الإنسان / ٣.
- (٣٧) سورة المؤمنون / ١١٥ - ١١٦.
- (٣٨) آداب النفوس / ٧٠.
- (٣٩) سورج الحجر / ٩٩.
- (٤٠) سورة الملك / ٢.
- (٤١) رواه مسلم في الذكر والدعاء، باب الرقاق، رقم / ٢٧٤٢.
- (٤٢) الإيمان والحياة للدكتور يوسف القرضاوي / ١٩٢.
- (٤٣) أساس البلاغة للزمخشري / ٢٢١.
- (٤٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية لابن قاسم ١٣/ ٢٠.
- (٤٥) سورة الأحزاب / ٦٢.
- (٤٦) سورة فاطر / ٤٣.
- (٤٧) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية لابن قاسم ١٣/ ١٩.
- (٤٨) طريق الدعوة في ظلال القرآن لأحمد فائز / ٢٢٣.
- (٤٩) في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/ ٣٦٣٢.
- (٥٠) سورة العنكبوت / ٣.
- (٥١) سورة الأنعام / ٣٣ - ٣٤.
- (٥٢) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد للدكتور عبد الكريم زيدان / ٨١.
- (٥٣) سورة الأنبياء / ٣٥.

- (٥٤) سورة آل عمران / ١٨٦ .
- (٥٥) تفسير المنار ٤ / ٢٧٤ .
- (٥٦) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد للدكتور عبدالكريم زيدان / ٨٤ .
- (٥٧) سورة الأنعام / ١٦٥ .
- (٥٨) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد للدكتور عبدالكريم زيدان / ٨٩ .
- (٥٩) رواه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، وقال: حديث حسن صحيح، رقم / ٢٣٩٨ ،
والدارمي ٢ / ٢٢٨ ، وأمد ١ / ١٧٢ ، وابن ماجه / ٤٠٢٣ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير
رقم / ١٠٠٣ .
- (٦٠) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي لأبي العلي المباركفوري ٧ / ٧٨ .
- (٦١) سورة آل عمران / ١٣٧ .
- (٦٢) سورة البقرة / ١٥٥ .
- (٦٣) تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي ١ / ٢٤ .
- (٦٤) سورة البقرة / ١٥٥ .
- (٦٥) إحياء علوم الدين للغزالي ٤ / ١٢٤ .
- (٦٦) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم / ٣٦ .
- (٦٧) إحياء علوم الدين للغزالي ٤ / ١٢٤ .
- (٦٨) سورة الأنبياء / ٣٥ .
- (٦٩) سورة الأعراف / ١٦٨ .
- (٧٠) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني / ٦١ .
- (٧١) طريق الدعوة في ظلال القرآن لأحمد فائز / ٢٣٦ .
- (٧٢) رواه البخاري في الرقاق ، باب العمل الذي ينتفي به وجه الله تعالى ٧ / ١٧٢ .
- (٧٣) رواه البخاري في المرضى ، باب فضل من ذهب بصره ٧ / ٤ .
- (٧٤) رواه البخاري في الطب ، باب أجر الصابر في الطاعون ٧ / ٢٢ .
- (٧٥) متفق عليه : رواه البخاري في المرضى ، باب فضل من يصرع من اليرح ٧ / ٤ ، ورواه مسلم في البر

والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن إلخ، رقم / ٢٥٧٦.

(٧٦) سورة البقرة / ١٥٥.

(٧٧) تسلية أهل المصائب لأبي عبدالله المنجي / ١٧.

(٧٨) رواه الترمذي في المناقب، باب في فضل النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: حديث غريب صحيح،

رقم / ٣٦١٨، ورواه ابن ماجه في الجنايز، باب ذكر وفاته صلى الله عليه وسلم، رقم / ١٦٣١.

(٧٩) تسلية أهل المصائب لأبي عبدالله المنجي / ١٩.

(٨٠) سورة يوسف / ٣٢.

(٨١) سورة يوسف / ٣٣.

(٨٢) رواه الترمذي في الدعوات باب / ٨٠، وقال: حديث حسن غريب، رقم / ٣٥٠٢.

(٨٣) الإيمان والحياة للدكتور يوسف القرضاوي / ١٩٦.

(٨٤) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني / ٦١.

(٨٥) متفق عليه : رواه البخاري في الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، ٧ / ١٧٢، ورواه مسلم

في الزهد والرقائق، رقم / ٢٩٦١.

(٨٦) سورة آل عمران / ١٤.

(٨٧) متفق عليه : رواه البخاري في الزكاة، باب الصدقة على اليتامى، ٢ / ١٢٧، ورواه مسلم في الزكاة، باب

تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، رقم / ١٠٥٢.

(٨٨) رواه البخاري في الأحكام، باب ما يكره من الحرص على الإمارة / ٨ / ١٠٦.

(٨٩) نيل الأوطار للشوكاني / ٨ / ٢٩١.

(٩٠) في ظلال القرآن لسيد قطب / ٤ / ٢٣٧.

(٩١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني / ٦١.

(٩٢) إحياء علم الدين / ٤ / ٦٨.

(٩٣) سورة العلق / ٦ - ٧.

(٩٤) رواه الترمذي في صفة القيامة، باب / ٣٠، وقال: حديث حسن، رقم / ٢٤٦٤.

(٩٥) في ظلال القرآن لسيد قطب / ٤ / ٢٣٧٧.

- (٩٦) رواه مسلم في الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم / ٢٩٩٩.
- (٩٧) في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/ ٣٢٩٩.
- (٩٨) سورة الحج / ١١.
- (٩٩) سورة العنكبوت / ١٠-١١.
- (١٠٠) سورة آل عمران / ١٧٩.
- (١٠١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٣٣.
- (١٠٢) زاد المعاد لابن القيم ٤/ ١٩٤.
- (١٠٣) ظاهرة المحنة لخالص جلبي / ٥٥.
- (١٠٤) سورة الرعد / ١٧.
- (١٠٥) طريق الدعوة في ظلال القرآن لأحمد فائز / ٢٢١.
- (١٠٦) مدارج السالكين ٢/ ١٥٦.
- (١٠٧) سورة الأحزاب ١٠-١١.
- (١٠٨) سورة الأحزاب / ٢٢.
- (١٠٩) رواه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، وقال حديث حسن غريب من هذا الوجه، رقم/ ٢٣٩٦، قال الأرناؤوط في هامش رياض الصالحين / ٦١ : رواه الطبراني والحاكم، وهو حديث صحيح بهذه الشواهد.
- (١١٠) متفق عليه : رواه البخاري في المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض ٧/ ٢، ورواه مسلم في البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض وحزن، رقم / ٢٥٧٣.
- (١١١) أمراض القلوب وشفائها / ٢٠، ٢١.
- (١١٢) سورة البقرة / ١٥٥-١٥٦-١٥٧.
- (١١٣) سورة الزمر / ١٠.
- (١١٤) رواه الدارمي في الرقاق، باب في أشد الناس بلاء، رقم / ٢٧٨٦، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم / ١٠٠٣.
- (١١٥) رواه الترمذي في الزهد، باب / ٥٨، وقال : حديث غريب ، رقم / ٢٤٠٢.

- (١١٦) زاد المعاد لابن القيم ٤/ ١٩٢.
- (١١٧) الابتلاء والمحن في الدعوات للدكتور محمد أبو فارس / ٣٧-٣٨.
- (١١٨) رواه أحمد ٥/ ٢٧٢، ورجاله ثقات إلا أن رواية : خالد السلمي عن أبيه لم يرو عنه إلا ابنه محمد، وأبوه اختلف في اسمه؛ لكن إيهام الصحابي لا يضر. فتح الباري لابن حجر ١٠/ ١٠٩.
- (١١٩) رواه أبو يعلى ، ورجاهنا مجمع الزوائد للهيتمي ٢/ ٢٩٢.
- (١٢٠) رواه أحمد ٦/ ١٦٠، ورجاله ثقات. مجمع الزوائد للهيتمي ٢/ ٢٩٩.
- (١٢١) إغائة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم ٢/ ١٨٦.
- (١٢٢) رواه مسلم في كتاب الزهد، باب المؤمن أمره كله خير، رقم / ٢٩٩٩.
- (١٢٤) رواه الترمذي في الجنايز، باب فضل المصيبة إذا احتسب، وقال: حديث حسن غريب، رقم / ١٠٢١.
- (١٢٤) رواه الترمذي في الزهد، باب ما جاء الصبر على البلاء، وقال: حديث حسن، رقم / ٢٣٩٨، وقال الأرنؤوط في هامش رياض الصالحين / ٦١ : رواه الطبراني والحاكم، وهو صحيح بهذه الشواهد.
- (١٢٥) رواه البخاري ١٠/ ٩٤.
- (١٢٦) سورة الأحزاب / ٣٨.
- (١٢٧) ظاهرة المحنة لخالص جلبي / ١٨.
- (١٢٨) متفق عليه : رواه البخاري في الجهاد، باب كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يقاتل أول النهار آخر القتال حتى تزول الشمس، ٤/ ٩، ورواه مسلم في الجهاد، باب كراهة تمني لقاء العدو ، رقم / ١٧٤٢.
- (١٢٩) رواه ابن مساجه في الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية، رقم / ٣٨٤٩، وقال العراقي في المغني في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للغزالي ٤/ ١٣١ : إسناده جيد.
- (١٣٠) رواه أحمد ٤/ ١٨١، قال الحافظ العراقي في المغني في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للغزالي ٤/ ١٣١ : إسناده جيد.
- (١٣١) رواه الترمذي في الفتن، باب / ٦٧، وقال : حديث حسن غريب، رقم / ٢٢٥٤، قال الأرنؤوط في هامش رياض الصالحين / ٦١ : رواه الطبراني والحاكم، وهو صحيح بهذه الشواهد.
- (١٣٢) سورة النحل / ١٠٥-١٠٦.
- (١٣٣) الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ١٨٢.

- (١٣٤) سورة النساء / ١٠٠ .
- (١٣٥) الجامع لأحكام القرآن ٥ / ٣٥٠ .
- (١٣٦) أصول الدعوة للدكتور عبدالكريم زيدان / ٣٥٥ .
- (١٣٧) إحياء علوم الدين ٤ / ١٣١ .
- (١٣٨) سورة الحديد / ٢٢-٢٣ .
- (١٣٩) رواه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم / ٢٣٩٦ .
- (١٤٠) مدارج السالكين لابن القيم ٢ / ١٦٦ .
- (١٤١) سورة الحج / ١٥ .
- (١٤٢) طريق الدعوة في ظلال القرآن لأحمد فائز / ٢٣٠ .
- (١٤٣) زاد المعاد لابن القيم ٤ / ١٩٤ .
- (١٤٤) مدارج السالكين لابن القيم ٢ / ٢١٥ .
- (١٤٥) ابتلاء الإرادة لعبدالرحمن الميداني / ٨١ .
- (١٤٦) رواه البخاري في كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض رقم / ٥٦٤١ .
- (١٤٧) الإيمان والحياة للدكتور / يوسف القرضاوي / ١٩٨ .
- (١٤٨) رواه مسلم في الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم / ٢٢٣ .
- (١٤٩) سورة الأنفال / ٤٦ .
- (١٥٠) سورة البقرة / ٤٥ .
- (١٥١) سورة آل عمران / ١٢٠ .
- (١٥٢) مدارج السالكين لابن القيم ٢ / ١٦٩ .
- (١٥٣) زاد المعاد لابن القيم ٤ / ١٩٠ .
- (١٥٤) الإيمان والحياة للدكتور يوسف القرضاوي / ١٩٧ .
- (١٥٥) صيد الخاطر لابن الجوزي / ٧٣ .
- (١٥٦) رواه أحمد ٣ / ١٩٣، وفيه أبو هلال الراسي وهو ثقة، وفيه خلاف، وبقي رجاله رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد للهيتمي ١٠ / ١٤٧ .

- (١٥٧) سورة يوسف / ٨٣ .
(١٥٨) صيد الخاطر لابن الجوزي / ٣٧٥ .
(١٥٩) في ظلال القرآن لسيد قطب / ١ / ٥٢٤ .
(١٦٠) سورة آل عمران / ١٧٨ .
(١٦١) سورة النساء / ١٩ .
(١٦٢) سورة النساء / ١٠٤ .
(١٦٣) سورة آل عمران / ١٣٩ - ١٤١ .
(١٦٤) إغانة اللفهان من مصايد الشيطان ٢ / ١٨٥ .

المراجع:

- ١ - (آداب النفوس) لأبي عبدالله حارث بن أسد المحاسبي، تحقيق عبدالقادر أحمد عطا، ط عام ١٩٨٤م، دار الجبل بيروت.
- ٢ - (أساس البلاغة) لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق عبدالرحيم محمود، ط ٢ عام ١٣٩٩هـ، دار المعرفة بيروت.
- ٣ - (أصول الدعوة) للدكتور عبدالكريم زيدان، ط ٣ عام ١٤٠٩هـ، مؤسسة الرسالة.
- ٤ - (أمراض القلوب وشفائها) لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية، ط ٢ عام ١٣٩٩هـ، المطبعة السلفية بالقاهرة.
- ٥ - (إحياء علوم الدين) لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، ط عام ١٣٩٨هـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.
- ٦ - (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان) لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.
- ٧ - (الإيمان والحياة) للدكتور يوسف القرضاوي، ط ٢ / ١٣٩٥هـ، مؤسسة الرسالة.
- ٨ - (ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة) لعبدالرحمن حبنكة الميداني ط ١ عام ١٤١٦هـ، دار القلم بيروت.
- ٩ - (الابتلاء والمحن في الدعوات) للدكتور محمد عبدالقادر أبوفارس، دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة.
- ١٠ - (تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي) لأبي العلي محمد عبدالرحمن المباركفوري، راجعه عبدالرحمن محمد عثمان، ط ٢ عام ١٣٨٥هـ، مطبعة

المعرفة.

- ١١ - (تسليية أهل المصائب) لأبي عبدالله محمد بن محمد المنبجي، ط عام ١٤٠٦هـ، دار الكتب العلمية بيروت.
- ١٢ - (التعريفات) لعلي الجرجاني، طبعة دار الكتب العربية.
- ١٣ - (تفسير القرآن العظيم) لأبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي، ط عام ١٣٨٨هـ، دار المعرفة بيروت.
- ١٤ - (تفسير المراغي) لأحمد مصطفى المراغي، ط ٥ عام ١٣٩٤هـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.
- ١٥ - (تفسير المنار) لمحمد عبده، إعداد السيد محمد رشيد رضا، ط، مطبعة دار المعرفة بيروت.
- ١٦ - (تهذيب اللغة) لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الدار المصرية للتأليف والنشر.
- ١٧ - (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط ٣ عام ١٣٨٨هـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.
- ١٨ - (الجامع لأحكام القرآن) لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار التراث العربي بيروت.
- ١٩ - (رياض الصالحين) لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط ٥ عام ١٤٠٥هـ مؤسسة الرسالة.
- ٢٠ - (زاد المعاد في هدي خير العباد) لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، ط ١٤ عام ١٤٠٧هـ مؤسسة الرسالة.
- ٢١ - (سنن ابن ماجه) لأبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية بيروت.

- ٢٢ - (السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية) للدكتور عبدالكريم زيدان، ط ١ / ١٤١٣ هـ، مؤسسة الرسالة.
- ٢٣ - (سنن الترمذي) لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط ٢ عام ١٣٩٧ هـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.
- ٢٤ - (سنن الدارمي) لأبي محمد عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، تحقيق السيد عبدالله هاشم المدني، ط عام ١٤٠٤ هـ، حديث أكاديمي بباكستان.
- ٢٥ - (صحيح الإمام البخاري) لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل الجعفي، المكتبة الإسلامية بتركيا.
- ٢٦ - (صحيح الجامع الصغير وزيادته - الفتح الكبير) لمحمد بن ناصر الألباني، ط ٣ عام ١٤٠٢ هـ، المكتب الإسلامي ببيروت.
- ٢٧ - (صحيح مسلم) لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، نشر إدارات البحوث العلمية والإفتاء بالرياض.
- ٢٨ - (صيد الخاطر) لأبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي، تحقيق محمد عبدالرحمن عوض، ط ٣ عام ١٤١٠ هـ، دار الكتاب العربي ببيروت.
- ٢٩ - (طريق الدعوة في ظلال القرآن) لأحمد فائز، ط ٦ عام ١٩٧٨ م، الشركة المتحدة للتوزيع ببيروت.
- ٣٠ - (ظاهرة المحنة، محاولة لدراسة سننية) للدكتور خالص جلبي، ط ١ / ١٤٠٠ هـ، دار القلم.
- ٣١ - (عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين) لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، ط ٤ عام ١٤٠٠ هـ، دار الآفاق الجديدة ببيروت.
- ٣٢ - (فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري) لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، نشر رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء بالرياض.
- ٣٣ - (الفروق في اللغة) لأبي هلال العسكري ط ٣ عام ١٩٧٩ م، دار الآفاق

الجديدة بيروت.

- ٣٤ - (في ظلال القرآن) لسيد قطب، ط ٣ عام ١٣٩٧ هـ، دار الشروق.
- ٣٥ - (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة بيروت.
- ٣٦ - (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) لعلي بن أبي بكر الهيثمي، ط ٣ عام ١٤٠٢ هـ، دار الكتاب العربي بيروت.
- ٣٧ - (مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية) جمع عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد، ط ١٣٩٨ هـ.
- ٣٨ - (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين) لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، ط عام ١٩٧٢ م، دار الكتاب العربي بيروت.
- ٣٩ - (مسند الإمام أحمد بن حنبل) دار صادر بيروت.
- ٤٠ - (المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار) لأبي الفضل عبدالرحيم بن الحسين العراقي، مطبوع على حاشية إحياء علوم للغزالي.
- ٤١ - (المفردات في غريب القرآن) لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة بيروت.
- ٤٢ - (النهاية في غريب الحديث والأثر) لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة الإسلامية.
- ٤٣ - (نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار) لمحمد بن علي الشوكاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

التحفة الوفية بمعاني حروف العربية

**لأبي إسحاق برهان الدين إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الصفاقسي
(٦٩٧هـ - ٧٤٢هـ)
(دراسة وتحقيقاً)**

إعداد الدكتور صالح بن حسين العائد

قسم النحو والصرف وفقه اللغة - كلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة :

الحمد لله الميسر كلَّ عسير ، والصلاة والسلام على البشير النذير نبينا وحبينا محمد ، وعلى آله وأصحابه والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين . أما بعد :

فَمَنْ يَسِّرَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَزُورَ بَعْضَ الْمَكْتَبَاتِ الْغَرْبِيَّةِ الَّتِي تُعْنَى بِجَمْعِ الْمَخْطُوطَاتِ الْعَرَبِيَّةِ يَدْرِكُ عَظَمَةَ هَذَا الدِّينِ وَسَمُوقَ شَأْوِ لُغَتِهِ الْعَرَبِيَّةِ ، حَيْثُ سَخَّرَ اللَّهُ تَعَالَى لِحِفْظِهِمَا مِنْ وَسَائِلِ الْحِفْظِ مَا يَدْعُو إِلَى الْعَجَبِ وَالْإِعْجَابِ ؛ حَتَّى سَخَّرَ الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ لِذَلِكَ أَعْدَاءَ هَذَا الدِّينِ ، فَجَعَلَ جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْبَلَايَا وَالْمَحَنِّ مَنْحاً عَظْمَى لَا يَدْرِكُ شَأْوَهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عِنْدَ نَزْوِلِهَا ، فَحِينَ اسْتَوْلَتِ الدُّوَلُ الْغَرْبِيَّةُ عَلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ ، وَرَكَّنَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْجَهْلِ ، وَرَقَدُوا فِي السَّبَاتِ الْعَمِيقِ ، لَمْ يَدَّخِرِ الْمُحْتَلُونَ وَسْعاً فِي جَمْعِ تَرَاثِ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ : (فِي نَهْبِهِ) إِمَّا بِالْقُوَّةِ ، وَإِمَّا بِالْإِغْرَاءِ ، فَكَانَ أَنْ اكْتَضَتْ بِالْمَخْطُوطَاتِ الْعَرَبِيَّةِ رُفُوفُ مَكْتَبَاتِهِمْ فِي : لِينِنغْرَاد ، وَجُوتَا ، وَبِرْلِينَ ، وَبَارِيسَ وَشِيكَاغُو ، وَتُوسَانَ ، وَصُوفِيَا ، وَمَكْتَبَاتِ : وَالْمُتَحَفِ الْبَرِيطَانِيِّ وَتَشْسْتَرِييْتِي ، وَالْأُوسْكُورِيَالِ ، وَالْإِمْبَرِيْزُونَا ، وَبِرْنِسْتُون ، وَالْكُونْجُرسِ الْأَمْرِيكِيِّ ، وَغَيْرِهَا .

وَحِينَ دَلَّكَتْ رَجُلَايَ أَبْوَابَ مَكْتَبَةِ جَامِعَةِ بَرْنِسْتُونِ فِي وَلايَةِ نِيُوجَرْسِي ، وَهِيَ ثَانِي أَشْهُرِ الْمَكْتَبَاتِ الْأَمْرِيكِيَّةِ بَعْدَ مَكْتَبَةِ الْكُونْجُرسِ الشَّهِيرَةِ ، حِينَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ بِبَالِي أَنَّهَا بَتَلُكَ الضَّخَامَةِ الَّتِي وَجَدْتُهَا عَلَيْهَا ؛ فَفِيهَا أَكْثَرُ مِنْ سِتِينَ أَلْفَ مَخْطُوطَةٍ عَرَبِيَّةٍ ، وَفِيهَا مِنْ وَسَائِلِ حِفْظِ الْمَخْطُوطَاتِ وَخِدْمَةِ الْبَاحِثِينَ وَسُرْعَةِ تَلْبِيَةِ طُلُبَاتِهِمْ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالِ بَاحِثٍ عَرَبِيٍّ مِثْلِي قَدْ عَانَى مَعَانَاةً طَوِيلَةً مِنْ إِیْصَادِ أَبْوَابِ الْمَكْتَبَاتِ بِوَجْهِهِ فِي عَالَمِهِ الْعَرَبِيِّ ، وَفِي الْبَلَدِ الْمُسْلِمِ (تَرْكِيَا) . وَبَعْدَ اعْتِكَافِي أَيَّاماً فِي تِلْكَ الْمَكْتَبَةِ الْعَرِيقَةِ خَرَجْتُ مِنْهَا بِسَعَادَةٍ وَحُزْنٍ سَبِيحُهُمَا مَا أَلْحَتْ

إليه آنفاً، وظفرتُ بمجموعة مصورات لنوادير المخطوطات العربية فيها، وكانت إحداها مخطوطة كتاب (التحفة الوفية بمعاني حروف العربية) للصفاقسي، فحين اطلعتُ عليها وجدتها قليلة الأوراق غزيرة الفوائد والمعلومات، فلم أتقاعس عن طلب تصويرها عازماً على المبادرة إلى تحقيقها ونشرها.

وظللتُ سنوات أنقبُ في فهارس المخطوطات سعيّاً وراء الظفر بنسخة أخرى للكتاب تكون عوناً لي بعد الله تعالى على تحقيقه، ولكنني كنتُ لا أعودُ بعد كلِّ سياحة في الفهارس مشرفاً كُنْتُ أو مغرباً إلا بخفي حنين، وبمعلومات لا تقدّر بثمان يزخر بها حاسوبي الشخصي عن أماكن وجود نوادر المخطوطات وأرقامها ووصفها، وبعد يأسٍ من العثور على نسخة أخرى قمتُ بتحقيق هذا الكتاب.

وقد سلكتُ في التحقيق منهجاً مطوراً عن مناهج شيوخ التحقيق في عالمنا العربي، وقد أوضحتُ معالمة في موضعه، لكنني هنا أؤكد على أنني قد ابتعدتُ فيه عن حشو الكتاب بالتعليقات التفصيلية التي تجعل من الكتيب كتاباً ضخماً، وهذا - في رأيي - منهجٌ غير سليم بدأ بترسيخه بعض المشتغلين في التحقيق، ففهموا أنَّ التحقيق لا بدَّ أن يكون شرحاً للكتاب المحقَّق، فأخرجوه عن مراد مؤلِّفه.

ولم يخلُ عملي من صعوبات واجهته؛ وكان من أبرزها العمل على التأكد من صواب النصِّ المحقَّق؛ لأنَّ الاعتماد على نسخة واحدة ليست نسخة المؤلف تجعل الوصول إلى النصِّ الصحيح عسير المنال، لكن حسبي أنني بذلتُ كلَّ ما في الوسع والطاقة، وما التوفيق إلا من عند الله العزيز الحكيم.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع بعلمي هذا المشتغلين بالعلم، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، والحمد لله أولاً وآخراً.

الفصل الأول : الصفاقسيّ

المؤلف :

نسبه : هو أبو إسحاق برهان الدين إبراهيم بن أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي القاسم إبراهيم القيسيّ الصفاقسيّ المالكي^(١).

مولده : وُلِدَ في سنة ٦٩٧ هـ^(٢) ونقل ابن حجر عن الذهبيّ أنّ الصفاقسيّ ذكر له أنّه وُلِدَ في حدود سنة ٦٩٨ هـ^(٣).

شيوخه :

١ - أبو عليّ ناصر الدين^(٤) منصور بن أحمد بن عبدالحقّ الزواويّ المشداليّ، المتوفى سنة ٧٣١ هـ^(٥).

٢ - أبو فارس عبد العزيز بن أبي القاسم بن حسن الربعيّ التونسيّ، المعروف بـ(الدروال)^(٦)، المتوفى سنة ٧٣٣ هـ^(٧).

٣ - أبو بكر بن محمد بن أحمد بن عتتر^(٨)، السلميّ، المتوفى سنة ٧٣٧ هـ^(٩).

٤ - أبو بكر محمد بن الرضي^(١٠)، الصالحيّ القطّان، المتوفى سنة ٧٣٨ هـ^(١١).

(١) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ٥٧/١، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون المالكيّ: ٢٧٩/١ - ٢٨٠، شجرة النور الزكية ٢٠٩.

(٢) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ٥٧/١، شجرة النور الزكية ٢٠٩.

(٣) الدرر الكامنة ٥٧/١.

(٤) ذكره ابن حجر في كتابه: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ٥٧/١.

(٥) ترجمته في: درة المجال في أسماء الرجال ٩/٣.

(٦) ذكره ابن فرحون في: الديباج المذهب في أعيان المذهب ٢٨٠/١.

(٧) ترجمته في: درة المجال ١١٧/٣ - ١١٨.

(٨) ذكره ابن حجر في: الدرر الكامنة ٥٧/١.

(٩) ترجمته في: الدرر الكامنة ٤٨٧/١.

(١٠) ذكره ابن حجر في: الدرر الكامنة ٥٧/١.

(١١) ترجمته في: الدرر الكامنة ٤٥٩/١.

٥ - أبو المعالي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزويني^(١٢)، المتوفى سنة ٧٣٩هـ^(١٣).

٦ - أم عبد الله زينب بنت الكمال^(١٤)، أحمد بن عبد الرحيم المقدسي، المتوفى سنة ٧٤٠هـ^(١٥).

٧ - أبو الحجاج جمال الدين بن يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف المزني^(١٦)، المتوفى سنة ٧٤٢هـ^(١٧).

٨ - أبو حيّان^(١٨)، أثير الدين محمد بن يوسف بن عليّ النحوي، المتوفى سنة ٧٤٥هـ^(١٩).

رحلاته :

يبدو أن برهان الدين قد ولد في صفاقس بتونس، وبذلك نُسب إليها، وقد رحل إلى بجاية في الجزائر، فسمع فيها من شيخها ناصر الدين الزواوي، ثم قصد الحج، ومَرَّ بالقاهرة، فأخذ فيها عن أبي حيّان النحوي، ثم قدم هو وأخوه شمس الدين محمد دمشق سنة ٧٣٨هـ، فسمع بها كثيراً من زينب بنت الكمال، وأبي بكر ابن عتار، وأبي بكر بن الرضي، والمزني، وغيرهم^(٢٠).

مؤلفاته :

يذكر المترجمون^١ للصفاقسي أنه قد ألف عدداً من الكتب، لكنهم لم يذكروا

(١٢) ذكره ابن مرزوق في : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ٣٩.

(١٣) ترجمته في : الدرر الكامنة ٤/٣ - ٦.

(١٤) ذكرها ابن حجر في : الدرر الكامنة ١/٥٧.

(١٥) ترجمتها في : الدرر الكامنة ٢/١١٧.

(١٦) ذكره ابن حجر في : الدرر الكامنة ١/٥٧.

(١٧) ترجمته في : الدرر الكامنة ٤/٤٥٧ - ٤٦١.

(١٨) ذكره ابن حجر في : الدرر الكامنة ١/٥٧.

(١٩) ترجمته في : الدرر الكامنة ٤/٣٠٢.

(٢٠) الدرر الكامنة ١/٥٧.

أسماءها كلّها، بل اكتفوا بالإشارة إلى كتبه الآتية :

- ١ - إسماع المؤذنين خلف الإمام^(٢١) : ولم أعثر عليه في فهارس المخطوطات .
- ٢ - التحفة الوفيّة بمعاني حروف العربيّة : وسيأتي تفصيل الحديث عنه قريباً إن شاء الله تعالى .

٣ - الروض الأريج في مسألة الصهرنج : ولم أعثر على إشارة إلى نسخ منه في فهارس المخطوطات ، لكن نقل صاحب كتاب (نيل الابتهاج بتطريز الديباج)^(٢٢) ، عن الخطيب ابن مرزوق الجدّ قوله عن شيخه الصفاقسيّ : « وقرأتُ عليه بعض تأليفه في نوازل لفروع سئل عنها ، منها :

الروض الأريج في مسألة الصهرنج ، سئل عن أرض ابتيغت ، فوجدَ فيها صهرنجٌ مغطى ، هل يكون كواحد الأحجار أم لا؟ وأبدع فيها ، وخالف فيها كثيراً من المالكيّة ، وعمل على مذهبه فيها» .

- ٤ - شرحٌ على مختصر الفروع لابن الحاجب : قال الصفدي^(٢٣) : «وله كتابٌ شرح فيه كتاب ابن الحاجب - رحمه الله تعالى - في الفروع ناقصاً» .

ونقل صاحب كتاب (نيل الابتهاج بتطريز الديباج)^(٢٤) عن الخطيب ابن مرزوق الجدّ قوله عن شيخه الصفاقسيّ : « وقرأتُ عليه أكثر تقييده على ابن الحاجب ، وتركته ولم يكمله» . ويبدو أنّ الكتاب مفقود حتّى الآن .

- ٥ - المجيد في إعراب القرآن المجيد : وهو من أجلّ كتب الأعراب ، وأكثرها فائدة ، جرّده من البحر المحيط للإمام العالم العلامة أثير الدين أبي حيّان ، ومن إعراب أبي البقاء ، وغير ذلك^(٢٥) .

(٢١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج : ٤٠ .

(٢٢) ص ٤٠ .

(٢٣) الوافي بالوفيات : ١٣٨/٦ .

(٢٤) ص ٤٠ .

(٢٥) الديباج المذهب : ٢٧٩/١ .

ونقل صاحب كتاب (نيل الابتهاج بتطريز الديباج)^(٢٦) عن الشيخ أبي زيد عبد الرحمن بن محمد الثعالبي المتوفى سنة ٨٧٦هـ^(٢٧) قوله : «قال الشيخ أبو عبدالله بن غازي^(٢٨) في كتابه (المطلب العلي في محادثة الإمام القلي)^(٢٩) : ولقد كان شيخنا شيخ الجماعة الإمام الأستاذ أبو عبدالله الكبير يشني كثيراً على فهم الصفاقسي، ويراه مصيباً في أكثر تعقباته وانتقاداته لأبي حيان، وقد كان له أخ نبيل شاركه في تصنيف كتابه (المجيد) المذكور كما نبّه عليه صاحب (المغني)^(٣٠) . . . »، وذكر ابن فرحون^(٣١) أنّ أخاه الذي شاركه في تأليف هذا الكتاب هو شمس الدين محمد بن محمد المتوفى سنة ٧٤٤هـ^(٣٢) . وقد طُبِعَ الجزء الأول من هذا الكتاب بتحقيق موسى محمد زين في طرابلس بليليا .

وفاته : توفي برهان الدين في الثامن عشر من ذي القعدة سنة ٧٤٢هـ^(٣٣) ، وقيل : إنه توفي في ذي الحجة من سنة ٧٤٣هـ^(٣٤) ، وكانت وفاته بالمنستير في تونس^(٣٥) .

(٢٦) ص ٤٠ .

(٢٧) ترجمته في : الضوء اللامع : ١٥٢/٤ .

(٢٨) هو : محمد بن أحمد بن محمد بن علي بن غازي العثماني الكناسي الفاسي، المتوفى سنة ٩١٩هـ . انظر : (معجم المؤلفين ١٦/٩) .

(٢٩) هديّة العارفين ٢٢٦/٢ .

(٣٠) ص ٥٠٤ .

(٣١) الديباج المذهب ٢٧٩/١ .

(٣٢) ترجمه في : الوافي بالوفيات : ٢٧٠/١ .

(٣٣) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ٥٧/١ ، بغية الوعاة ٤٢٥/١ ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ٤٠ .

(٣٤) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٩٨/١٠ .

(٣٥) شجرة النور الزكية ٢٠٩ .

الفصل الثاني

كتاب (التحفة الوفية بمعاني حروف العربية)

نسبة الكتاب :

لم أقف على مَنْ عَدَّ من مؤلفات الصفاقسيّ هذا الكتاب، لكن الذين ترجموا له لم يذكروا كلّ كتبه، بل قال بعضهم: «... وله مصنفات مفيدة»، منها: إعراب القرآن، وشرح ابن الحاجب في الفقه، وغير ذلك...^(٣٦)، وهذا القول يُشعرُ بعدم حصر مؤلفاته، وبأنّ له غير هذين الكتابين.

وقد ذكر ناسخ مخطوطة هذا الكتاب اسم مؤلفه الصفاقسيّ في نهايتها كاملاً، بل نقل ترجمته من كتاب (الدرر الكامنة)، وهذا يبعد الشكّ في نسبة الكتاب إليه.

منهج المؤلف في الكتاب :

يعدّ كتاب (التحفة الوفية بمعاني حروف العربية) من الكتب الموجزة، فكثير من كتب الحروف، لكن المؤلف - رحمه الله - سلك في ترتيبه مسلكاً علمياً جيّداً؛ إذ جعله على بابين اثنين :

الباب الأول : في تقسيم الحروف بحسب الإعمال والإهمال .

وبالباب الثاني : في تقسيمها بحسب ألقابها .

وقد قسم الباب الأول منهما قسمين أيضاً :

جعل القسم الأوّل منه في (الحروف المعملة) .

(٣٦) النجوم الزاهرة ٩٨/١٠ .

وجعل القسم الثاني منه في (الحروف المهملة).

وقد ذكر في القسم الأول أنواع الحروف المعملة مقسّمة بحسب عملها، فاستقصى في النوع الأول من هذا القسم (الحروف الجارة)، وذكر معانيها واستعمالاتها^(٣٧)، ثم ثنى بـ(الحروف الناصبة)، وذكر شروط عملها، وأقوال العلماء فيها^(٣٨)، ثم ثلث بـ(الحروف الجوازم)، وذكر نوعيها: ما يجزم فعلاً واحداً، ثم ما يجزم فعلين^(٣٩)، وبعد ذلك أتى على النوع الرابع من أنواع الحروف العاملة، وهي (الحروف الناصبة الرافعة)، أي: الحروف النواسخ العاملة عمل (إنّ)، والعاملة عمل (كان)^(٤٠)، أمّا النوع الأخير من أنواع الحروف العاملة، وهو (الحرف الجار الرفع) فقد اكتفى بالإشارة إليه ابتداءً عند التقسيم^(٤١)، ثمّ عرضاً حين تحدّث عن (لعل)^(٤٢).

وأما القسم الثاني من الباب الأول، وهو في الحروف المهملة، فأغفل المؤلف الحديث عنه، ولست أعلم لذلك سبباً إلا إذا كان قد استغنى عن ذلك بإيرادها في الباب الثاني مع أخواتها الحروف العاملة، والله أعلم.

أما الباب الثاني، وهو في تقسيم الحروف بحسب ألقابها، فقد ذكر خمسين نوعاً من أنواعها^(٤٣)، وأكثر ما ذكره فيه إعادة لما سبق أن ذكره في الباب الأول.

(٣٧) انظر: النصّ المحقّق: ص ٢٦ - ٥٥.

(٣٨) انظر: النصّ المحقّق: ص ٥٥ - ٦٢.

(٣٩) انظر: النصّ المحقّق: ص ٦٢ - ٦٥.

(٤٠) انظر: النصّ المحقّق: ص ٦٥ - ٧٠.

(٤١) انظر: النصّ المحقّق: ص ٢٥.

(٤٢) انظر: النصّ المحقّق: ص ٥٣.

(٤٣) انظر: النصّ المحقّق: ص ٧٠ - ٨٧.

والملاحظ على منهج المؤلف في كتابه هذا الاقتصار على ذكر الحرف ومثال أو شاهد له، والابتعاد عن التفصيل في المسائل النحويّة، بل كانت السمة البارزة فيه هي الاختصار، وهي سمة كثير من كتب الحروف سوى كتاب المرادي المعروف بـ(الجنى الداني في حروف المعاني)، وكتاب ابن هشام الموسوم بـ(مغني اللبيب عن كتب الأعريب).

مصادر الكتاب :

حين قرأتُ المخطوطة لم يكن يخامرني شكٌ في أن هذا الكتاب هو اختصارٌ لكتاب المرادي (الجنى الداني)، لكنّي بعد سبري غور الكتابين بدا لي أن الصفاقسيّ والمراديّ كأنهما كانا عالّةً على كتب شيخهما العظيم أبي حيّان أثير الدين محمد بن يوسف بن عليّ النحويّ الأندلسيّ المتوفى سنة ٧٤٥هـ، رحمه الله، وقد استطعتُ بعد رجوعي إلى كتابه (النكت الحسان في شرح غاية الإحسان) قطع الشكّ باليقين، حيث أيقنتُ بأنّ الصفاقسيّ قد استفاد منه، وهو يكتب الباب الثاني من كتابه هذا (تقسيم الحروف بحسب ألقابها)، بل إنّ وصولي إلى هذه الحقيقة قد حلّ لي بعض الإشكالات التي كنت قد واجهتها بسبب الاعتماد على نسخة فريدة في تحقيق هذا الكتاب.

أمّا الباب الأوّل منه فلم أقف على مصدر رئيسٍ أجزم بأنّ المؤلف قد اعتمد عليه فيه، لكنّه بلا ريب استعان فيه بكتاب شيخه أبي حيّان (ارتشاف الضرب من لسان العرب)، وبكتاب (شرح التسهيل) وكلاهما لابن مالك، رحمه الله.

أمّا عن المصادر غير الرئيسة للكتاب فأقول: خلا الكتاب من ذكر أسماء الكتب، لكنّه اكتفى بذكر أسماء بعض العلماء ممّا قد يشعر برجوعه إلى كتبهم،

وكان اسم سيبويه أكثر أسماء العلماء ذكراً، حيث ورد ثلاث عشرة مرة^(٤٤)، ثم المبرد^(٤٥) والأخفش^(٤٦) حيث ذكر المؤلف اسم كل واحد منهما ست مرات، ثم أبي عليّ الفارسيّ الذي تكرر اسمه أربع مرّات^(٤٧)، يليه الفراء الذي ذُكر ثلاث مرّات^(٤٨)، وبعده الخليل^(٤٩)، ويونس^(٥٠)، والكسائي^(٥١)، وابن أبي الربيع^(٥٢)، وابن الطراوة^(٥٣) حيث نقل عن كل واحد منهما رأيين فقط، أمّا الذين وردت أسماءهم في الكتاب مرّة واحدة فهم: الأصمعي^(٥٤)، والسيرافي^(٥٥)، وابن كيسان^(٥٦)، وابن عصفور^(٥٧)، وابن مالك^(٥٨)، ولا يعني ذكر أسماء هؤلاء أنّ المؤلف قد أخذ من كتبهم مباشرة، بل ربّما كانت آراؤهم قد وصلتته عبر مصادر أخرى، والله أعلم.

(٤٤) انظر النصّ المحقّق: ٢٧، ٣٤، ٤٠، ٤٢، ٤٩، ٥٢، ٦٠، ٦٣، ٦٤، ٦٨، ٦٩، ٧٩، ٨٦، ٨٧.

(٤٥) انظر النصّ المحقّق: ٣٤، ٤٠، ٥٣، ٦٣، ٧٤، ٧٦.

(٤٦) انظر النصّ المحقّق: ٢٩، ٤٥، ٥٣، ٥٥، ٥٧، ٦٠.

(٤٧) انظر النصّ المحقّق: ٣٥، ٤٠، ٧٢، ٨٦.

(٤٨) انظر النصّ المحقّق: ٢٣، ٤٤، ٥٧.

(٤٩) انظر النصّ المحقّق: ٦٠، ٦٤.

(٥٠) انظر النصّ المحقّق: ٦٧، ٧٤.

(٥١) انظر النصّ المحقّق: ٤٦، ٥٠.

(٥٢) انظر النصّ المحقّق: ٣٦، ٦٨.

(٥٣) انظر النصّ المحقّق: ٤٦، ٦١.

(٥٤) انظر النصّ المحقّق: ٣٥.

(٥٥) انظر النصّ المحقّق: ٣٠.

(٥٦) انظر النصّ المحقّق: ٧٣.

(٥٧) انظر النصّ المحقّق: ٤٠.

(٥٨) انظر النصّ المحقّق: ٣٦.

شواهد الكتاب :

هذا الكتاب مع كونه صغير الحجم هو كثير الشواهد، وتبرز الشواهد القرآنية فيه أكثر من غيرها، حيث بلغت الآيات التي استشهد بها المؤلف - رحمه الله - اثنتين وثمانين آية، ولا غرو في ذلك؛ فهو ذو عناية واضحة بالقرآن الكريم، وقد سبقت الإشارة إلى أنه أَلَفَ كتاباً سَمَّاهُ (المجيد في إعراب القرآن المجيد)، ويلحظ دارسُ هذا الكتاب أن المؤلف كان يستعِضُّ عن التمثيل بالشواهد، ولا يأتي بها للاستدلال على قاعدة بعينها، وقد كرّر المؤلف الاستشهاد بثلاث آيات في موضعين.

يلي الآيات في كثرة الاستشهاد الشواهد الشعرية حيث بلغت خمسة وأربعين شاهداً، ولم يتبع المؤلف - رحمه الله تعالى - في الاستشهاد بالشعر طريقة واحدة، فبينما تراه يذكر البيت كاملاً في اثنين وثلاثين شاهداً^(٥٩)، تجده يكتفي بصدوره في شاهدين^(٦٠)، وبعجزه في أربعة شواهد^(٦١)، وبكلمات منه في سبعة أخرى^(٦٢)؛ لأن مبتغاه بيان موضع الشاهد، وربما كان هذا أيضاً هو السبب الذي لم يجعل المؤلف حريصاً على عزو الأبيات إلى قائلها إلا نادراً حيث اكتفى بنسبة ثلاثة شواهد إلى أصحابها، وترك ما سواها إما جهلاً بهم أو عمداً، لعدم الحاجة إلى عزوها.

وتأتي أقوال العرب في المرتبة الثالثة من حيث كثرة الاستشهاد، حيث استشهد

(٥٩) انظر النصّ المحقّق: ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٥، ٣٩، ٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧٢، ٧٤، ٧٥، ٨٣.

(٦٠) انظر النصّ المحقّق: ٣٧.

(٦١) انظر النصّ المحقّق: ٣٢، ٣٣، ٣٦، ٥٥.

(٦٢) انظر النصّ المحقّق: ٣٥، ٣٦، ٤٠، ٤٢، ٥١.

بأربعة أقوال فقط^(٦٣). وفي المنزلة الأخيرة يأتي الاستشهاد بأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم حيث لم تزد على ثلاثة أحاديث^(٦٤)، وهذا الشأن يأتي امتداداً لموقف أهل النحو من الاستشهاد بالحديث النبوي.

التحقيق :

مخطوطة الكتاب :

حفظت لنا عناية الله نسخة واحدة من كتاب (التحفة الوفية بمعاني حروف العربية) في مكتبة (جامعة برنستون) في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي نسخة فريدة نفيسة من هذا الكتاب محفوظة فيها تحت رقم (H a ٢٨٣). وتقع المخطوطة في (١٣ صفحة)، وفي كل صفحة (٢٨ سطراً)، ولا تحمل النسخة اسم ناسخها، ولا تاريخ النسخ، لكن الخط يشبه خطوط نسخ القرن الثامن الهجري، والنسخة مقابلة على الأصل الذي نُقِلَتْ منه، مصححة، وقد أثبت الناسخ تصويبات في هوامشها وحواشيها، وعليها حواش منقولة من كتاب المرادي الموسوم بـ (الجنى الداني في حروف المعاني)، وقد خُتِمَتِ النسخة بترجمة للمؤلف الصفاقسي منقولة من (الدرر الكامنة).

منهجي في التحقيق :

- ١ - حاولت الوصول إلى النص الصحيح، وما وجدته في المخطوطة خطأ بلا شبهة غيرته، وأشارت إلى ما بالمخطوطة في الهوامش.
- ٢ - وضعتُ عناوانات تميّز الحروف والمواضيع، وجعلتها بين قوسين معكوفتين، هكذا [].

(٦٣) انظر النصّ المحقّق: ٤٤، ٤٩، ٥١، ٦٠.

(٦٤) انظر النصّ المحقّق: ٦٥، ٧٩، ٨٥.

- ٣- ضبطتُ بالشكل ما يحتاج من الشواهد الشعرية والنثرية إلى ضبط .
 - ٤- خرجتُ آراء العلماء وأقوالهم من كتبهم ، أو من المصادر الأخرى المتقدمة .
 - ٥- ذكرت أرقام الآيات وأسماء سورها .
 - ٦- خرجتُ الأحاديث وأقوال العرب .
 - ٧- خرجتُ الشواهد الشعرية من دواوين شعرائها ، واكتفيت بالدواوين وعدد قليل من كتب شروح الشواهد ، وإذا لم أعرف القائل أحلتُ على أقدم مصادر الشاهد .
 - ٨- أكملتُ ما لم يكمله المؤلف من الأبيات .
 - ٩- ترجمتُ للأعلام ترجمات موجزة بذكر أسمائهم وسنوات وفياتهم ومصادر قليلة لترجماتهم .
- والله الموفق .

ولواقفة في قول النافع فلا تترك بالعبارة التي لا تترك
ولواقفة من نحو سـ اسبق فلا يروى الى ابن ابراهيم
ام لا يسبق الى الشباب وذكر اسمي الى من ارجع اليه
سأول على الفين ويزاد عند الغراء ومنه قارة تهوى ليلهم
للزفرة حقيقة وزيد في السجد او بجاء كقول تعالى ولكم في القصاص حكمة وزيد في
كقول تعالى ادخلوا في امـ وللتعليل كقول تعالى استكم فيما انعمت به عليكم وللقافية
كقول تعالى فما منع اليوم الدنيا في الاخرة الا جهيل ولواقفة على كقول تعالى في جذع
ولواقفة الباء اي باء استعانة كقول تعالى يدرككم فيه اي يكثر فيه ولواقفة الى
كقول تعالى فريد في ايديهم في فرائضهم ولواقفة من كوله سـ ثلاثين شهرا في نخوة اهل
وكله عند البصرين متاولة ومنها الباء وتكون زائدة وغير زائدة غير ان الزائدة
للانصاف وهو اصلها ولا تقارنها ولم يذكر اسمي غيره وللاستعانة نحو كنت بالقلم
والنفاضة خرج زيد بيا به وبكى عنها ايضا بـ المحالة وللتسبب كقول تعالى فظلم
وللقسم نحو بالله وللمقارنة نحو زيد بالبصرة وللتعدي نحو ذهب زيد وحياها
معنى المخرج خلافا للبريد واداء بعضهم للبدل كقوله فليت لي بهم قهرا وللعاية
نحو اشترت الفرس بالفاء ولواقفة عن كقول تعالى فاسئل بغيرها وعلى كقول تعالى
مجان تامة بقطارة ومن التعميمية وذكر الفارسي والاصمعي وشاهد
شرب الماء بالجرم ترفعت متى لمج خض لهن نبيح وارال لانه زائدة في فاعل
فعل النبي نحو احسن زيد وغير زائدة بعباس في جزمها وليس وفعل كفي
ومفعول نحو كفي بنا فضلا وحسبك مبتدا نحو بحسبك زيد وبغير قياس
في اعدا ذلك كقوله فانك مما احدثت بالمحج وطاهر كلام ابن مالك انها
ستاس ايضا في التواسخ المنفية نحو لم اكن باعلم واطلق ابن ابي اربع في زيادتها
في الفاعل والمفعول والمبتدأ والمخرج كقول تعالى وجرا استيتية ستيتها مثلها
ومنها الا ماله ملك حقيقة كقول تعالى والله ملك السموات والارض ومجازا نحو
لي اكن لك والتعليل نحو وهب لك ديارا وشبه كقول تعالى جعل لكم من انفسكم اذوا لجا
ولا خصا من كقول تعالى بعلون له عيشة ولا تحقيق المجرى للعارية وللقسم ولزعمها
فيه التبع نحو لله سبي على الايام وذو حيد والتبع نحو لله عيشة من راي من فوق
وللتسبب نحو زيد غم هو وللتعليل كقوله ليكن بين الناس والتبليغ كقول تعالى
هيئت لك وللتصديق كقوله تعالى ليكون عددا وجزا ولا انتها كقوله

ومنها الهجى وحرف لعل ومنها الاستدراك وحرف لكن ومنها العاية وحرفه
 حتى والى ومنها التقليل وحرف رُب ومنها الابدان وحرفه ان واخراتها
 اذ اقلت بما وهل وهل ولكن وحتى اذا وقعت بعدها جملة نحو ما زيد قائم وهل زيد
 قائم وما زيد لكن عرو قائم واكملت السمكة حتى راسها مأكول وما قام زيد بل
 عرو قائم ومنها العوض وحرف ما في نحو ما خراشة اما انت ذا نفران قوي لم
 يأكلهم الضبع اى لان كنت فخرت كان وعوضت ما ولذا المجمع بينهما والفصل الضمير
 ما رت ما دافعة له ناهية بظهور الحق العوضية ومنها التخصيص وحرفه قيد
 مع ان ومنها الاضراب وحرفه بل واوام المتفصلة لكن مع الحرف وقيل
 بل حذف ومنها الدعاء وحرفه لا نحو لا عذب الله زيدا وزاد بعضهم لئلا
 يحزن برحم الله زيدا ومنها كف وتهميشة وحرفه ما وتلقان ولو انهما فاقين
 بعدها جملة اسمية فكافة اى مانعة لها من العمل وان كانت فاعلية فمفعلة وكذا رب
 على خلاف غيرها ومنها التسوية وحرفه الخرج نحو ما على آت ام قدمت ولا ابر
 اقام زيد ام قدمت ولينحى الفعل بعدها اى ما صيا ومبنيها التقديم وحرفه الحمد
 نحو ائت زيدا ومررت به ومنها التعليل وحرفه لانم نحو ليحك ومن عوقفت من
 عري والنساء كفرا تعالى فيظلم وكفى عوجت كى اكرك وحتى عوقفت حتى اخذ
 بين وفي محاروبى ان امرأة دخلت النار في هرة اى بسبب هرة ومنها المقدر
 وحرفه ان وان وكفى فاصدتها وعلى ان يعرف واكذى وكفى وفي صدرتها خلو
 ومنها التقرير وحرفه الخيرة كقولهم المشرح للصدرية ومنها التوسيع وحرفه خلا
 نحو خلاصيت ومنها الايجبا وحرفه الحمد في افعلى واستغفام ولما نحو ما قام
 الا زيد وهل يضرب الا زيد ولا يضرب الا زيد كقولهم ان كل نفس لما عليها حافظ ومنها
 وحرفه الا نحو لا تزل عندنا ومنها لوجوب لوجوب وحرفه لما الحانة وحرفه المانية
 للا نحو لما قام زيد قام زيد وذهبها لعل الى ما ناظر ومنها امتناع لامتناع
 وحرفه لئى وعبان سميها فيهلوف لما كان يتبع لرفع غيره وهى المظروية ومنها
 امتناع لنحو وحرفه لولا غير التخصيصية نحو لولا زيد لا كرمك ويلزم على عان
 فلو ان يكون لولا كرمك لما كان يتبع لانتفاء ما قبله ومنها الاثنان وحرفه الف

الاسم
 ١٩
 ١٨
 ١٧
 ١٦
 ١٥
 ١٤
 ١٣
 ١٢
 ١١
 ١٠
 ٩
 ٨
 ٧
 ٦
 ٥
 ٤
 ٣
 ٢
 ١

[illegible]

المولى العارضة ابو عبد الله محمد احمد ابي بكرى قضيح باسكان كرايه ولى الله العارضة الامصارى الامدى

[illegible]

لكن هذا المصنف واكثر علماء الكتاب المذكور باسودادهم محمد بن في كتاب شرح بعض
وكتاب فتح الحوض بالزهد والفقاعة وردل اسوال بالكتب وشفاعة المفق

وَمَا يَلْقَ الْأَعْمَىٰ إِلَّا الْحَسْبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ذُو فَضْلٍ ۚ

الشرح وحدث عن أبي علي الحسن بن محمد بن بكير بن عمرو بن وهب بن كاهن بن شريك بن
وفوقها ودفن بها في سؤال ٦١ طبقات الكلبية لابن فرجوه المالكى

البرعة والبرعة مثل البرعة والبرعة مثل البرعة والبرعة مثل البرعة
على فاعل مثل المفعول والبرعة مثل البرعة على فاعل

عبرك نقل عن هذا الكتاب
تس والماضي وغيرها من غير قول الله تعالى في كتابه العزيز
فمن قرأ القرآن فليعص الله وأطيعه

کلامی بری و کسا العوب بری ملا و بری و لاخره ماز بر آه و دیر و لاخره علی بنی
وینا یقال لانه می و قدر و رو برات و المرض ابرو و آقا ی و لم یجینا لانه مریه فقلت انهم

افعل وقد استغنى لكما بالعهدة ادا وتجده والا فلا فالكف ثم ذكر قرات افرو وماتت البعير
اشوفه وقبائنه والبرك على العوز عيهم ثم الورب فيهم ثم البره والقبلي والدرية وذر اذ انطقى وذك

[illegible]